رسالة الناصر معروف في الذب عن مجد التصوف

بقلم الأستاذ
الحاج أحمد بن مصطفى العلوي المستغانمي

المطبعة العلاوية بمستغانم

الطبعة الثانية

1410هـ - 1990م

رقم التسجيل : (1487/85)

مقدمة الطبعة الثانية:

بســـــم الله الرحمٰن الرحيم

والصلاة والسلام على إمام المتقين، ورسول رب العالمين. سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله واصحابه المهتدين الداعين الى الصراط المستقيم، وسلم تسليما.

اما بعد، يسر المطبعة العلاوية ان تواصل نشر آثار الاستاذ الكبير، والصوفي الشهير الشيخ احمد بن مصطفى العلاوي المستغانمي، منها هذه الرسالة القيمة المسماة بـ (الناصر معروف في الذب عن مجد التصوف). وقد كان الاستاذ رحمه الله قد نشرها في اعداد متتابعة في جريدة (البلاغ الجزائري) اواخر الثلاثينات من هذا القرن، يرد فيها على المقال المنشور بمجلة (الشهاب) عدد (174) وهو لأحد العلماء المدرسين بالحرم النبوي الشريف.

وقد ناقش الشيخ العلاوي هذا المقال وبيّن ما فيه من اختلال المعنى والمبنى، وتناقض الكاتب في آرائه، معتمدا على مصدر لا يصح به الاحتجاج وهو كتاب (تلبيس ابليس) لابن الجوزي. وحلل ما استشهد به الكاتب من نصوص معزوة الى بعض الائمة كالشافعي ومالك، واحمد ابن حنبل، رضي الله عنهم، ونقضها قولا قولا بابلغ حجة، واقوى دليل يصعب رده، لما في تلك النقول من التضارب والتعارض، ويستغرب الشيخ من مقالة الكاتب التي هاجم فيها الامام الجنيد وابا يزيد البسطامي، و ذا النون المصري

وغيرهم من ائمة الصوفية، وينكر عليهم اشد الانكار على ما صدر منهم من اقوال، واعمال مخالفة للشرع الشريف، ثم لا يذكر قولا ولا فعلا يظهر فيه وجه الانكار.

ويزيد الشيخ تعجبا واستغرابا من تناقض الكاتب حين ينقل نصا بإسناده الى يحي بن يحي انه قال: (الخوارج احب اليه من الصوفية)، ويعتبره دليلا على فساد مذهب الصوفية، وبعد قليل يقرر الكاتب «من ان قول الصحابي ليس بحجة» بينما يعتبر قول غيره حجة وهو من اغرب التقريرات.

ولما كشف الشيخ عن فساد المقالة وما يريد الكاتب تقريره من ان التصوف بدعة وضلالة، اخد يرد عن مسائله واحدة بعد اخرى، مدعما ردوده بالنقول الثابتة، والنصوص الصريحة المعزوة الى خمسة وسبعين علما من اعلام الاسلام من عصر التابعين حتى عصرنا الحاضر، كقول الامام الشاطبي في كتاب «الموافقات»: (الصوفية حجة في علومهم، وهم صفوة الله من خلقه باتفاق) وقوله: (جعل الله هاته الطائفة صفوة اوليائه، وفضلهم على الكافة من غير تميز بعد الرسل والانبياء عليهم السلام) «ص 57».

ويقرر الشيخ احمد زروق البرنسي في شرحه على «الحكم العطائية» في تعريف التصوف: (انه بمنزلة الروح، والفقه جسده، اذ لا ظهور له الا فيه، كما لا قيام للجسد الا به) ويقول الشيخ زروق ايضا في تعليقه على مقطعات «الششتري»: (ان طريق التصوف انتهجها الصالحون من اولياء الله، وظهرت نتيجتها في كثير من عباد الله، واشتملت على رجال قاموا

بأحكام الشريعة وآداب الحقيقة، وتعلقوا باسماء رب العالمين، وتخلقوا بأخلاق سيد المرسلين،... عند ذكرهم تنزل الرحمات، وبسبب وجودهم ترفع النقمات) «ص 56» وغيرها من النصوص التي لا تدع اي التباس لدى القارىء الذي يجهل كثيرا من الجوانب في موضوع التصوف والمنتسبين اليه، فكشف الشيخ عن مخبآته بأفصح عبارة واقوى حجة.

ونظراً لأهمية الموضوع الذي عالجه الشيخ في رسالته، كتب علماء المشرق تقريظات حسنة ألحقت بآخر الرسالة كتقريظ العلامة الشيخ توفيق الايوبي الانصاري، والعلامة الشيخ محمد هاشم رشيد، والعلامة الشيخ زين العابدين التونسي، والشيخ جميل الشطي مفتي السادة الحنابلة بدمشق، وغيرهم من ائمة العلم، ونرجو من المولى الكريم ان ينفع به المسلمين ويهدينا الى الحق والى طريق مستقيم. وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين.

بقلم يحي الطاهر برقة

بســـم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الأمين، المرسل رحمة للعالمين، وعلى آله واصحابه وانصاره واتباعه الى يوم الدين.

«اما بعد» فيقول العبد الفقير المعترف بالعجز والتقصير، محمد ابن الهاشمي التلمساني: هذه الرسالة المباركة الموسومة «بالناصر معروف في الذب عن مجد التصوف» من اجل ما كتب في هذا الموضوع براهينها قاطعة وانوارها ساطعة كيف لا! وهي من مؤلفات مولانا الاستاذ الكبير الامام المرشد الشهير، سيدي الحاج احمد بن مصطفى العلاوي المستغانمي رضي الله عنه، واطال بقاءه آمـــين.

وقد كانت نشرت في اعداد من صحيفة البلاغ الجزائري، بامضاء «الناصر معروف»، ولهذا سماها بهذا الاسم، فاحببت ان يعم نفعها، فتعرضت لنفحات الله بطبعها، راجيا من الله تعالى، ان ينفعنا بها، وبمؤلفها آميـــن.

قال رضي الله عنـــه

بسم الله الرحمٰن الرحيم، الحمد لله العلي العظيم، والصلاة والسلام على النبي الكريم، وعلى آله واصحابه اجمعين.

الى المعظم قدره، استاذ التدريس بالحرم النبوي الشريف، الشيخ (.......) رزقني الله واياكم رفقا بالمؤمنين خصوصا، من ذلك ائمة الدين وهداة المسلمين، والسلام عليكم، وعلى عباد الله الصالحين، من اخٍ لكم في الدين يرى النصح عليه واجبا مهما استطاع الى ذلك سبيلا.

هذا ايها الاخ، اننا وأيم الله لممن يغبطكم لمكانكم ومكانتكم، وهذا لا يمنعني ان نقول لكم انه يجدر بكم، وانتم اهل الصلاح والدعاة الى سبيل الاصلاح، ان تكونوا على جانب عظيم من التثبت في النقل، ومجانبة ضعف المأخذ، لا سيما وانتم بصدد إثبات الحجة، وتوضيح المحجة. كما لا يخفاكم، ان الحجة لا تثبت فيما تحاولون اثباته الا بالمتواتر، والامر البين الظاهر.

على انك لا تنكر، أنه يوجد بين الناس من يملك حق التمييز، بحيث لا ينخدع بنحو خزف المسكوكات ومموهاتها، وانتم تعرفون ان الناقد بصير، خصوصا في مثل هذا الامر الخطير الذي ركبتم متن الوصول اليه بدون ما تتخذون للطريق زادا، ولا لأنفسكم عمادا! وهو الامر الذي دعانا لتسطير هاته الجمل.

قد كنت ايها الاخ وقفت على ما كتبتموه بمجلة الشهاب عدد (174) تلك الكتابة التي اخذت لنا صورة معلوماتكم، والتي لم تكن الغاية منها الا الحط من شرف القوم الصوفية، والتنكيل

بكرامتهم، لتظهروهم للعموم بالصفة التي ذكرتموها من كون الجنيد وعصابته، كانوا احط مرتبة عند بعض الائمة من مرتبة الخوارج، فضلا عن حمقهم، والخلل الموجود في اقوالهم واعمالهم. هذا ما كنتم تحاولون التعبير عنه، وقد اسعفكم الحظ على ذلك! فلم يبق لكم والحالة هذه، الا ان تسمعوا منا نظير ما سمعناه منكم. او يسمعه غيركم حتى لا يكون ما قررتموه ضربة لازب يقضي على مجد التصوف من اصله، خصوصا اذا ثبت صدور الحكم بذلك عن ائمة السلف، ونقله عنهم (المدرس بالحرم النبوي الشريف)، وانت تعلم يا حضرة الاخ فخامة ذلك اللقب، وفخامة المنقول عنهم. وإذاً فالنقل بتلك الصفة، يخشى منه ان يكون عاملا بانفراده عند خالي الذهن، فيصبح لا يملك من احترام ما كان يحترمه من قبل، نقيرا ولا قطميرا.

وعليه فلا تراني من المتكلفين، ولا من المترامين على شيئ لا يهمني اذا حاولت نقض ما ابرمتموه وحل ما عقدتموه بصفة تعجبكم ان شاء الله، وتسر الناضرين، وليس لي نية في ذلك، الا مجرد استطلاع الحقيقة واثبات الواقع ولا تعتقد ان تكون تلك المحاولة مني بنحو اتيان البيوت من ظهورها، وإرسال النصوص على علاتها كلا، فان توضيح المحجة لا يصح إلا بمقارعة الحجة بالحجة. هكذا سولت لي نفسي، ولا عليك في تسولها ما دام للناس عيون يبصرون بها، وآذان يسمعون بها.

وانت خبير بان قيمة النصوص مرسومة على ظاهرها **(فمن ابصر فلنفسه، ومن عمي فعليها)** وكيفما كان الحال، فعصا موسى

لا تشتبه بغيرها ان كانت بين الكثير من العصي وهكذا يده البيضاء وان كانت بين كثير من الايدي وانني وان كنت نحترم شخصكم يتحتم علي عندما اتأمل ما كتبتموه ان اقول لكم قد تسورتم على القوم الصوفية المحراب واردتم مقارعة الجبال بما تحت ايديكم من السراب.

يا نـــاطح الجبل العـــالي لتوهنـــه

اشفق على الرأس لا تشفق على الجبـل

وهل تظن يا حضرة الاخ، ان ما لفقتموه من تلك الجمل، يستطيع ان يعمل بانفراده متسما في سياج من حديد؟ ذلك السياج الذي اقامته يد العناية الالهية حول كرامة المتصوفة من امدٍ بعيد؟ كان ولم يزل ثابت القواعد فحقيق ان لا تستطيع لمثل ذلك ولو حاولت دهرا طويلا.

نعم، كثيرا ما حاول غيركم في الغابر، ولكنه حاول عبثا، وقبل الشروع في المقصود اثبت لكم شيئا لربما يسبق فهمكم، او فهم غيركم الى نقيضه. وهو اني والحمد لله، لا انتصر بكتابتي هاته، ولا بغيرها ان شاء الله الا لامرٍ ينتصر له الدين، ويهم جمهور المسلمين. وعليه فلا تظن ايها الاخ اني اقصد حماية اهل الطريق كيفما كانت نحلتهم، وتطورت صبغتهم، وان حادوا عن الشرع الشريف، فمعاذ الله ان تجدني للظالمين عضدا. فالشرع حاكم غير محكوم عليه، والمتصوفة كغيرهم من سائر الطبقات فيهم الغث والسمين، وذلك في افراد المجتمع طبيعي، والمتداخل لا يسلم منه اي فريق كان...

وانت تعلم باني لست بالمنفرد في مراعاة حرمة الجنيد وعصابته، ولربما تجدون من اميالكم، وتحسون من عواطفكم ما يعضد ذلك. ولا اراني الا معذورا عندكم فيما ربما نرتكبه من بعض العبارات، وهي وان تجدوا لها حظا من الثقل على اسماعكم الشريفة فلا اراها تبلغ في ذلك ما بلغت اليه عبارتكم في اسماعنا، تلك العبارة التي ذكرتم فيها: كون الجنيد ومن يشاكله من رجال التصوف، كانوا احط رتبة من الخوارج عند بعض الائمة! وهذا زيادة عما كان يصاحبهم من الزيغ في اقوالهم وافعالهم حسبما ذكرتم تلك النقائص التي تظنون انها تحققت سلامتكم، انتم من جميعها ظاهرا او باطنا ؟.

فرحماك اللهم بنا وباسلافنا، فقد امطرت علينا وعليهم اقلام كتابنا، مطر السوء، فهل لنا عندهم من شفيع الا كلمة (لاآله الا الله)؟. فاجعلها اللهم كافية لديهم، خصوصا عند هذا الاخ المبعوث من اجله هذا الكتاب .

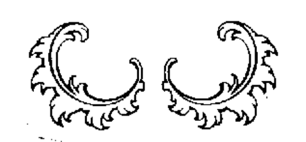
ثم اعود للمقصود فاقول: اني قد كنت ارى من واجبي ان نتتبع بالنقض جميع ما كتبتموه ايها الاخ حرفيا، ولكن عند الشروع تبين لي خلاف ذلك، لما وجدته في مقالكم من ضعف المبنى، واختلال المعنى، الامر الذي لا يعطي كبير اهمية لنقض كل جملة على حدتها، فظهر لي ان نقتصر على المسائل التي تهمنا في الموضوع.

المسالة الاولى : التنصيص على ما قدمناه من كون المقال مختل التركيب.

المسالة الثانية : كون المصدر المعتمد عليه في النقل عندكم، لا يصح به الاحتجاج.

المسالة الثالثة : في كون ما نسبتموه من النقول الى الائمة لا يعطي من نفسه دلالة صريحة على فساد مذهب الصوفية.

المسالة الرابعة : استطراد ما يفيد احترام رجال التصوف عند سائر طبقات الامة، من عهد الائمة الى وقتنا هذا.



بيـــان المسألـــة الاولى

فيما يوجد من الخلل في مقالكم حسبما ذكرناه ولنقتصر من ذلك على جملتين، تكفينا مؤنة التطويل. إحداهما ترجع الى اللفظ، والاخرى الى المعنى، وبذكرهما يدرك القارىء وتدركون انتم ايضا، ما لتلك المقالة من المتانة، التي رأيتموها كافية في الاستدلال، على إثبات فساد مذهب القوم الصوفية، رضي الله تعالى عنهم.

قلتم في مفتتح ما كتبتم، بعد ما ذكرتم الجنيد، وابا يزيد وجماعة، معهما نقلا من كتاب «تلبيس ابليس» انه صدر عن هؤلاء اقوال وافعال مخالفة للشرع، منكرة انكرها عليهم العلماء الخ... ثم قلتم، قال: ابن الجوزي بعد ما ذكر جملة من منكراتهم ولما قل علم الصوفية بالشرع، فصدر منهم من الاقوال والافعال ما لا يحل مثل ما ذكرنا. ثم تشبه بهم من ليس منهم، وتسمى باسمهم، وصدر عنهم مثل ما قد حكينا الخ...

قلت وهنا يتعين علي وعلى كل من يقف على هاته الجملة، ان يستوقفكم شيئا ما، ريثما تتبين له كيفية الاستنتاج من هذا التركيب العجيب، سواء عليه كان من عندكم، او من عند غيركم، لان القارىء، لا بد وان يتوقف على الفهم فيما يقرؤه، ومن اين له ان يفهم قولكم: [انه لما قل علم الصوفية، بالشرع فصدر منهم من الاقوال والافعال مالا يحل مع قولكم ثم تشبه بهم من ليس منهم، وتسمى باسمهم، وصدر منهم، مثل ما حكينا وكان الصالح منهم نادرا ؟]

فقل لي بربك، ما معنى قولكم ثم تشبه بهم من ليس منهم فاني وتالله ما ادركت لهذا التركيب معنى ارتاح اليه ولولا ما جاء في آخر مقالكم من الحط على الجنيد وعصابته، لظننت انكم تريدون بصدر مقالكم تنزيه اولئك الاجلة عما صدر من المتشبهين بهم اخيرا، على حدّ قوله تعالى: (**فخلف من بعدهم خلف**) الآية. والمعنى، انهم كانوا على هدى، ولكنكم ما قصدتم ذلك ولا افصحتم عن عكسه، ولا تركتم لنا مندوحة، نستطيع بها تبرير ما جئتم به من هذا التركيب العجيب والاسلوب الغريب. فاني ما ادركت منه الا انه في اقصى دركات الاختلال، وبودنا ان لو تعرفونا بما عندكم فيه من حسن البيان، وهذا ما يرجع الى اللفظ ؟.

اما ما يرجع للتناقض في المعنى من جهة الاستدلال فقد جاء في تركيبه ما هو اوهى بكثير مما قدمناه، فلا يروج عند من له ادنى مسكة من فهم، او تَمَيُّز حسبما ستدركون ذلك بانفسكم، عندما اطلعكم عليه!

قد ذكرتم ياحضرة الاخ ان من جملة من اعترض على الصوفية، وانكر عليهم ابو سليمان الداراني، واحمد بن ابي الحواري، ولم تلبثوا الا قليلا، حتى ذكرتم هذين الرجلين، من جملة الصوفية الذين وقع عليهم الانكار. فمنهم من قبض عليه، و منهم من فرّ هاربا بنفسه! فبمثل هذا التناقض تريد ان تستقيم لكم الحجة!؟

واليكم ما نقلتموه. قلتم، سامحكم الله، نقلا من كتاب «تلبيس ابليس» [وباسناد عن ابي حاتم قال: حدثنا أحمد بن

أبي الحواري يقول: حدثنا وكيع قال: سمعت سفيان يقول مازلنا نعرف الصوفية بالحمق الا انهم يستترون بالحديث].

تامل ايها الاخ، كيف جعلت ابا سليمان، واحمد بن ابي الحواري، ممن يعتمد عليهم في إنكارهم على مذهب الصوفية، وفي جملة من بدعوهم وضللوهم. ثم بعد ذلك ذكرت الرجلين بانفسهما، من جملة من وقع عليهم النكير من العلماء، فقلتم نقلا عن كتاب تلبيس ابليس [ان العلماء بمصر انكروا على ذي النون ما يتكلم به، وببسطام على ابي يزيد، واخرجوا ابا سليمان الداراني، وهرب من ايديهم احمد بن ابي الحواري] الخ...

فتأمل ايها الاخ، وقل لي بربك هل علي لوم اذا انا وقفت كالمتحير عند ما نجدك تذكر ابا سليمان الداراني واحمد بن ابي الحواري، في جملة رجال العلم، الذين تريد ان تقيم الحجة بهم على فساد مذهب الصوفية؟ ثم نجدك تذكر في المحل نفسه انهما من جملة المعترض عليهم من رجال العلم!.

وهل تراني متغاليا إذ قلت لكم: إن مقالتكم تلك مختلفة لفظا ومعنىً؟! كلا.



المسألة الثانية

في كون المصدر الذي اعتمدتموه في النقل، لا تقوم به حجة في طريق الاستدلال.

فاقول لكم صريحا يا حضرة الاخ ان معتمدكم فيما نقلتموه من كتاب ابن الجوزي، المسمى بـ (تلبيس ابليس) لا تقوم به حجة، ولست ادري هل انتم على علم من قيمة هذا الكتاب ومنزلته بين العلماء، ام كنتم على خلاف ذلك؟

ولهذا، اراني مضطرا ان اذكر لكم مقداره عند العلماء.

فاقول: ان للعلماء في ذلك الكتاب كثيرا من الاخذ والرد، وفي الاخير، اتضح عندهم انه مما لا تنهض به الحجة ولا يصح به الاستدلال.

وها انا انقل لكم من اقوالهم، حتى تدرك مقدار ما اعتمدتموه في الحط من كرامة رجال، كان من واجبك ان تعتبرهم في الصف الاول من رجال الدين، وأئمة المسلمين.

ذكر غير واحد، ان كتاب ابن الجوزي هذا، لم يكن بين العلماء مما يصح الاستدلال به، او يعتمد في النقل عليه، حتى ان منهم من حرم قراءته بالمرة، ومنهم ومنهم. ولا تظن اني سأنقل لك عمن ترتاب في النقل عنهم، لكونهم من عصابة المتصوفة كالغزالي، والشاذلي مثلا: كلا. وإنما اثبت لكم ذلك عمن ترون إسناد القول اليهم، حجة في هذا الباب.

فاقول: قال العلامة التفتازاني في ترجمته لابي عبد الرحمٰن

السلمي، وقد طعن فيه ابن الجوزي كما هو دأبه في الائمة، فيظهر من ذلك جليا ان فعل ابن الجوزي لم يكن مستحسنا بين جمهور العلماء ؟

ونظيره ما قاله الاجهوري، لا تجوز قراءة كتب ابن الجوزي في المساجد، لكثرة ما نقله فيها من الموضوعات. وقراءة مقامات الحريري اولى من قراءة كتبه، لانها لا تعد كذبا.

وذكر العلامة البوني في كتابه مبين المسارب، ان الامام ابن عرفة وغيره، حذروا من مطالعة كتاب ابن الجوزي المسمى بـ (تلبيس ابليس) الى ان قال: وذلك الكتاب هو من تلبيس ابليس على ابن الجوزي. ويظهر من هذا، ان ابن عرفة وغيره، كانوا يرون تأثيرات الاسماء في مسمياتها. وهو قول غير واحد منهم.

ذكر ابن الحاج في الجزء الثاني من مدخله عن الشيخ عبد الرحمان الصقلي انه قال: لكل انسان من اسمه نصيب، هذا في الاشخاص وهكذا في غيرها.

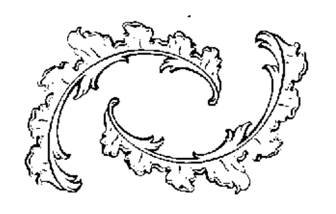
قلت، ويشهد لهذا تغييره صلى الله عليه وعلى آله وسلم لبعض الاسماء بما هو احسن منها. ثم نرجع لما به الحاجة، فاقول: ان من أقوال العلماء الصريحة في كون الكتاب المشار اليه، لا يبلغ درجة الاحتجاج به، وانت خبير يا حضرة الاخ، ان النص، اذا وقع فيه الاحتمال، يسقط به الاستدلال، وهي قاعدة مسلمة، وعمدة يرجع اليها خصوصا في فن المناظرة، وكيفما كان الحال، فهو لا يبلغ عندكم ولا عند غيركم من الصحة الحدّ الذي يصح به العلم ويقنع به الخصم، وان رأيتم انتم خلاف ذلك، فغيركم لا يرى الا ما رأيناه والله اعلم.

المسـألـة الثـالثـة

قد كنتم قررتم يا حضرة الاخ، فيما كتبتموه من كون ائمة المذاهب، كانوا لا يتوقفون في نسبة مذهب التصوف، الى ما هو كالزيغ والابتداع، وما هو من ذلك القبيل، واستدليتم على إثبات ذلك بما كنتم نقلتموه عن ابن الجوزي من كتابه (تلبيس ابليس) على نية ان تكون تلك النقول كافية في تحقيق دعواكم، وانتم تعلمون ان تجريح المذهب ونسبته الى الضلال، ليس بالامر الهين عند الله، حتى تستقيم لكم فيه الحجة بشبه خيوط العنكبوت، وهذه نيتكم كانت!

اما نيتي انا فيما نقصده من هذا الكتاب ان وفقني الله، هو إثبات عكس ما اثبتموه ونقيض ما ابرمتموه من جهة ما يتعلق بالائمة المجتهدين، ونظرتهم في رجال التصوف، ولربما نزيدك على ذلك نافلة تثبت لكم فيها كون مذهب التصوف لم يزل محترما عند اكابر الائمة، ورجال الملة، من عهد السلف الى ما يقرب من يومنا هذا، ولا شاهد ابلغ من آثارهم المنقولة عنهم حسبما ستقف عليه ان شاء الله، الا الشذوذ، والنادر لا حكم له؟ وقبل التعريج على مابه الحاجة، ظهر لي ان نكرر النظر فيما اسلفتم نقله عن الائمة، فلتسمح لي، ايها الاخ، على دراسته، دراسة تسمح لنا ولكم باستخلاص ما ترمي اليه تلك النقول، لنتأمل اهي صالحة لان تعطينا الحكم من ذاتها على فساد مذهب الصوفية، وتبديع رجاله كما زعمتم، ام هي على خلاف ذلك؟ وبالجملة،

فانك ستقف ان شاء الله على حقائق ناصعة،وحجج واضحة،طالما داستها نعال المغرضين حسدا من عند انفسهم. ومن هنا نشرع فيمانقلتموه عن الائمة جملة جملة،مع إعطاء النظر في كل عبارة من عباراتهم.



العبارة الاولى للامام مالك

قلتم، وباسناد عن عبد الملك بن زياد قال: كنا عند مالك، فذكرت له صوفية بلادنا، فقلت له يلبسون فواخر ثياب اليمن، ويفعلون كذا وكذا، فقال ويحك او هم مسلمون؟ هذا ما ذكرتموه عن الامام. ونحن اذا حددنا النظر في مضمون هذا النقل على فرض صحته، لابد ان نستخلص منه مسائل.

المسألـة الاولى:

تفيدنا ان مذهب القوم ثابت الدعائم من عصر التابعين، لان مالك كان من معاصريهم.

المسألـة الثـانيـة:

ان المذهب كان في نظرهم في غاية الاعظام، لان السائل لم يسأل الامام على المذهب، ولا الامام اخبر على فساده، وانما السؤال يفيدنا، ان هناك جماعة انتسبت للتصوف مع انها تفعل كذا وكذا، فكان جواب الامام يفيد استبعاد ان يكون اولئك من عامة المسلمين، فضلا على ان ينتسبوا للتصوف الذي هو عبارة عن السير في مراتب الاحسان، وهذا ماتعطيه العبارة عن مضمون السؤال والجواب مهما تصفحناها بإنصاف، وكيفما كان الحال فهي لا تعطي حكما باتا عاما، يقضي بالزيغ على مذهب التصوف، وعلى عموم من انتمى اليه، وهذا يظهر من قول الامام على فرض صحته كما تقدم.

العبارة الثانية للامام الشافعي

قلتم، وبإسناد عن يونس بن عبد الاعلى قال سمعت الشافعي يقول : لو ان رجلا تصوف اول النهار ، لا يأتي عليه الظهر حتى يصير احمق .

وعنه ايظا قال : ما لزم احد الصوفية اربعين يوما ، فعاد اليه عقله ابدا وانشد الشافعي :

ودعوا الذين اذا اتوك تنسكوا   واذا خلوا كانوا ذئاب حقاف

ونحن اذا استخلصنا من اقوال الامام، ما به الحاجة بعد فرض ثبوتها عنه ، فنجد الامر منحصرا في إثبات الحمق لمن ينتسب الى المتصوفة لا غير ، مع اننا لا ندري، هل إثبات الحمق، لهم انما هو في نظر من سواهم كما سيأتي ، ام هو ثابت في نفس الامر ؟ فان قلنا بالاخير، فلا بدا ان يكون مختصا بمن يعرفهم الامام من اهل بلده ، وإما ان يكون مطردا في عموم افراد المتصوفة . وعليه فان يكن الاول فالامر محتمل ، وان يكن الثاني ، فالواقع يجري على خلافه بدليل المشاهدة ، ولا اراني متغاليا ، يا حضرة الاخ ، ان قلت لكم انه قد يوجد في رجال التصوف من يكاد عقله يرجح بعقول سائر كتاب عصرنا ، وإن كنت انا وانت من أفرادهم .

وهب انه يثبت عنهم نوع من الطيش في طباعهم، فهل يصح ان يكون عنوانا على فساد العقيدة ؟ فيبعد ، يا حضرة الاخ ، ان تستخلص من ذلك النقل ما تحتج به ، لانك بصدد إثبات فساد المذهب ، لا بصدد اثبات تفاوت العقول ورجحانها ، وزيادة انك

تعلم من ان رجحان العقل في مرتبة يعتبر نقصانا في الاخرى، الا ترى ان العاقل بين اهل الدنيا يعتبر احمق عند اهل الآخرة والعكس بالعكس.

وما يدرينا ويدريكم ان تكون اقوال الامام من ذلك القبيل، حيث انه يقول: ما لازم احد الصوفية اربعين يوما فعاد له عقله ابدا. فيعني بذلك العقل الحيواني الذي كان يعتمده هو ويعتمده غيره في مقام الافلاس. روي عن القاضي ابي بكر بن العربي انه قال: لقيت ابا حامد وهو يطوف وعليه مرقعة. فقلت يا شيخ، العلم والتدريس اولى لك من هذا إذ بك يقتدى وبحكمك الى معالم المعارف يهتدى.

فقال: هيهات! لما طلع فجر السعادة في فلك الارادة، اشرقت شموس الوصول على مصابيح الاصول، فتبين الحق لأرباب الألباب، وذوي البصائر، إذ كل لما طبع عليه راجع وصائر، وانشد:

تركت هوى ليلى ولبنى بمعزل ☆ وصرت الى مصحوب اول منزل
ونادتني الاكوان مهلا فهذه ☆ منازل من تهوى رويدك فانزل
فعرست في دار الندى بعزيمة ☆ قلوب ذوي التعريف عنها بمعزل
غزلت هم غزلا رقيقا فلم اجد ☆ لغزلي نساجا فكسرت مغزلي

واذاً، فهذا يدل على ان العقل الذي كان يعرفه عليه ابو بكر ابن العربي، ليس هو عين ما وجده عليه في ذلك الحين، عندما كان يرتدي ذلك الرداء الذي كان من المستبعد ان يقع نظيره على ظهر حجة الاسلام.

ونحن، ما تكلفنا لحمل كلام الشافعي رحمه الله على هذا المحمل، الا نظرا لما صح عن ذلك الامام الجليل من احترامه

للمتصوفة، وإذعانه لكبرائهم، حسبما ستقف عليه في محله ان شاء الله، وزيادة، ان العبارة لا يستعصى صرفها لهذا الوجه.

نعم قد يقول القائل: ان مضمون الشعر بعدها يمنع حملها على هذا المحمل، ولكن هذا، اذا نحن سلمنا كون الشعر هو من تتمة معنى العبارة، ومن نسج الامام ووضعه عقبها بتلك الصفة، واما اذا وجدناه كما هو في نفس الامر بعيد الالتحام بها مفرغا من جميع معانيها، علما يقينا ان حمل هذا الشعر على الصوفية، هو لغير الامام، لأننا نرى الشافعي احذق من ان يأتي بشعر عقب نثر لا يحمل شيئا من روحانية ما قبله، وليس على القارىء الا ان يتأمل هيأة الارتباط بينهما، فيجد الذوق يمنع ان يكون ذلك الشعر هو خلاصة ما قبله، لان الاول يشف عن شبه الحمق، والثاني يرمي الى شيء من التحيل والخداع.

ومتى جعلناه مستقلا بنفسه، فلا يكون للصوفية فيه من الاختصاص، اكثر مما لغيرهم، فالشعر يرمي الى التحذير من كل مخادع من اي مذهب كان، وهذا ما يعطيه صريح اللفظ والله أعلم.



العبارة الثالثة لأبي سليمان

قلتم، وباسناد عن ابي حاتم قال: حدثنا احمد بن ابي الحواري قال · قال ابو سليمان، ما رأيت صوفيا فيه خير مع ميلي إليهم إلا واحد : عبد الله بن مرزوق.

قلت، وهاته العبارة على ما فيها من التعقيد، وكيفما كان حلها، فهي لا تفيد اكثر من ان ابا سليمان، كان يرى وجود الخير من بين المنتسبين للمتصوفة قليلا، مع انه يجد من نفسه ميلا نحوهم، ولعله يعني بنفي الخير من بينهم عدم وجود الاستعداد، والصلاحية للمقام بين من ينتسب للتصوف في زمانه، او في بلده، لا نفي الخير الذي هو مقابل الشر، والا لما صح الاستثناء، إذ لو كان المذهب عنده متهما من اصله، لما تسنى له ان يستثني من افراده لا كثيرا ولا قليلا.

وانت ترى، انك اذا اردت ان تذكر إحدى الفرق الضالة فهل يسمح لك التعبير ان تقول ما رأيت فاسقا فيه خير الا واحدا وهو فلان. فإذا كان هذا لا يصح كما هو الواقع، علمنا يقينا ان مقالة ابي سليمان، ليس فيها ما يدل على فساد المذهب كما تقصدونه، ويجب عليكم حملها على الوجه الذي يصح معه الإستثناء، وهذا إذا جعلنا أن ابا سليمان من طبقة من انكر على الصوفية.

أما إذا جعلناه من أفرادهم، ومن خاصة رجالهم كما أثبتموه انتم في آخر مقالكم، يرتفع النزاع، وتصير الحجة عليكم لا لكم.

العبارة الرابعة ليونس بن عبد الاعلى

قلتم وبإسناد عن يونس بن عبد الاعلى يقول : ما رأيت صوفيا عاقلا الا إدريس الخولاني ، ثم قلتم وبإسناد عن يونس بن عبد الاعلى يقول : صحبت الصوفية ثلاثين سنة، ما رأيت فيهم عاقلا، الا مسلمًا الخواص .

فاقول : ان هاته الجمل المنقولة عن يونس، قد دعتني الضرورة لمراجعتكم في مضمونها فلربما يكون لكم من العلم اكثر مما لنا فيهـــا .

كنتم ذكرتم عنه في صدر النقل، أنه لم يجد صوفيا عاقلا الا إدريس الخولاني ، ثم ذكرتم عنه بصدد ذلك، نقلا ثانيا يقول فيه انه لم يجد عاقلا الا مسلما الخواص ، ومهما يكن مسلم هذا غير إدريس الخولاني، يختل مضمون ما ترومونه من الحصر الذي يقتضيه الاستثناء في النقل السابق، وهكذا في اللاحق ايضا وتسقط الحجة ، ولربما يتهم الناقل لها بشيئ من ضعف الملكة وهذا على ما يظهر لنا ولا يبعد ان تسعفونا عليه لان الامر فيه واضـــح .



العبارة الخامسة لسفيان الثوري

قلتم، وبإسناد عن احمد بن ابي الحواري يقول، حدثنا وكيع قال سمعت سفيان يقول: ما زلنا نعرف الصوفية بالحمق إلا انهم يستترون بالحديث فأقول: ان هاته الرواية المنقولة عن سفيان الثوري لا تفيدكم اكثر من انها اثبتت للصوفية شيئا من الحمق مع إذخالها لهم في رجال الحديث، ولا شك ان نسبتهم للحديث تستر ما بهم من الحمق على ما يستفاد من رواية الثوري رحمه الله، وهذا بقطع النظر عما يروى من اوثق المصادر عن سفيان، من جهة إعظامه لمذهب القوم، حسبما ستقفون على نقله إن شاء الله.

العبارة السادسة لوكيع

قلتم، وبإسناد عن سفيان بن عاصم قال: قال لي وكيع لِمَ تركت حديث هشام؟ قلت: صحبت قوما من الصوفية، وكنت بهم معجبا. فقالوا: إن لم تمح حديث هشام قاطعناك فأطعتهم، فقال: ان فيهم حمقا. وهنا لزمني ان نقول لكم، كيفما تساهلنا معكم في قبول هذا النقل منكم، الا والواقع يقضي علينا ان نقول لكم: إنه نقل متضارب، يسقط اوله آخره، حتى لا يدري القارىء لا ما يثبته ولا ما ينفيه.

ألستم قد ذكرتم اولا أنكم رويتم عن وكيع عن سفيان، وها انتم

الآن تذكرون انكم رويتم عن سفيان عن عاصم عن وكيع، فكان اولا وكيع من إسناد رواية سفيان، فاصبح الآن سفيان من إسناد رواية وكيع فيالها من رواية ما أصحها! فلو كان لها ما للانسان من الادراك، لرأيتها يضحك بعضها عن بعض، والعجب لمن لم يلتفت لما ينقله. وكيفما كانت هاته الرواية، فهي لا تزيد على ما قبلها من كونها تثبت للصوفية شيئا من الحمق، ولكن تجعلهم في رتبة من يحتاط لدينه، من جهة الاخذ عن أئمة الحديث. نعم تزيد هاته الرواية على ما قبلها شيئا آخر، وهو إخبار عاصم عن نفسه، من كونه معجبا بالصوفية، ولا تقل درجة عاصم هذا، عن دراجة غيره من رجال الحديث، فلتتأمل مضمون ما سقتموه في النازلة، إذا كان يصلح ان يكون دليلا على سقوط مذهب القوم.

وفي ظني، ان هاته العبارة، هي آخر ما بأيديكم من النقول عن الائمة المعتبرين، وها قد جئتكم بها عن آخرها. ولكن مع الاسف جاءتكم النتيجة على خلاف ما رتبتم المقدمات من اجله، ولست أدري هل كان ذلك منكم على نية مقصودة، ام تجري الرياح بما لا يشتهي الملاّح؟

ولهذا، أراني مضطرا لمراجعتكم، فيما فاتني ان ندركه من صنيعكم. أليس قد كنتم أثبتم في صدر مقالكم، كون الجنيد وعصابته صدرت منهم أقوال واعمال مخالفة للشرع، منكرة أنكرها عليهم العلماء الى آخر ما ذكرتموه؟ وإذا فكان واجب المقام يقضي عليكم بالتنصيص على تلك الاعمال والاقوال المنكرة التي صدرت عن أولئك الاجلاء، فتثبتونها بما عندكم من التحقيقات.

ثم تجلبون عليها بخيلكم ورجلكم بما تحت أيديكم من أقوال العلماء ونصوصهم الصريحة في تلك النوازل، لتثبتوا دعواكم بصفة شرعية. فان فعلتم ذلك، كنتم قد أديتم الامانة، وقمتم بواجب الصناعة، وهذا ما ينتظر من أعمالكم واذا أنتم، يا للاسف، تتطوحون لشيئ لم يكن في نيتكم الكلام عليه، ولا عنونتم المقال من اجله، إذ غاية ما أستطعتم التحصيل عليه من جميع منقولاتكم لم يزد على أنكم أثبتم فيه ضربا من الحمق للسادة المتصوفـــة.

ومراعاة لما أستفدنا من صنيعكم هذا، ظهر لي ان أقول لكم، ولكن لا تؤاخذني بما أقول، إنه إذا كان نقصان العقل عنوانا على المتصوفة، فانك كدت ان تكون صوفيا بهذا الاعتبار، وهذا ملخص ما كنتم قدمتموه من الاستدلالات.



العبارة السابعة ليحي بن يحي

قلتم، وبإسناد عن يحي بن يحي، أنه قال : الخوارج أحب اليه من المتصوفة! فأقول : الآن حصحص الحق الذي لا غبار عليه، فان عبارة يحي هذا حقها ان تعتبر لديكم، يا حضرة الاخ، نصا صريحا وأمرا واضحا في النازلة، وإذًا، فمحاولة تأويلها وصرفها عن ظاهرها يعتبر ضربا من التنطع ونوعا من المكابرة.

وبالجملة، فعبارة كهذه من جهة الوضوح والصراحة، تصلح ان تكون كافية بانفرادها في القضاء، على مذهب القوم الصوفية، وما ينقصها، الا أنها لم تكن من مدخول آي الذكر الحكيم، فهذا الذي ينقصها فقط!

نعم، تحتاج الى امر يزيد على ذلك، وهو النظر في عدم كونها غير منسوخة بمثلها، او مقيّدة بغيرها، لانها، إن كانت مقيدة بشيئ من ذلك، لا تتفرغ الى العمل باطلاق.

ونحن لم نستفسر، حضرة الاخ، أهَلْ هاته القولة كانت عنده بمنزلة آي الذكر الحكيم؟ وهل توفرت فيها الشروط المطلوبة، التي تخولها حق التسلط بالحكم على شبه أمة برمتها ؟ لا! لا! ياحضرة الاخ، ما هكذا يا سعد، تورد الإبل ؛ ولا من تلك المصادر تعتمد العلل، خصوصا فيما يرجع لنحو التفسيق، والتضليل، والتبديع، عافانا الله وإياكم من جميعها فتلك الاحكام، لم تكن ابداً ولا ينبغي ان تكون رهن إرادة زيد، او رحمة عمرو.

وهنا يتعين علي ان أقول: انه يقبح بمن يدعي السَّلَفِيَّة ثم تهون

عليه نفسه، ان يجعلها أمتعة لأقاويل الرجال وإختياراتهم، ولا يكفيه ذلك حتى يتخذ كل مقالة من اي كان، مسلمة خصوصا في شبه التبديع والتضليل !

ألم تستحضر، أيها الاخ، ما ربما يقول لكم القائل، ان قولة يحي بن يحي، لم تقدنا اكثر من انها انبأتنا، على ان صاحبها اطلعنا على ان حبه كان للخوارج اوفر، من حبه للمتصوفة، وذلك شيء يخصه في نفسه، ولم يكن بالمسيطر علينا ولا نحن بالمسيطرين عليه.

ويقول غيره، نحن لا ننازع يحي بن يحي في حبه للخوارج وتفضيله لهم على المتصوفة، لان للناس أميالا وعواطف تبعثهم على الحب والبغض، وإنما النزاع فيما اذا أردتم القضاء على عواطف غيره حتى لا يحب الا بحبه، ولا يبغض إلا ببغضه، وهو شيء لا يستطاع. وكيفما كان الامر، لا يصح ان يكون تفضيل هذا الرجل للخوارج على الصوفية، دليلا على تفضيل الله لهم، ولا على العكس. **(والله أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بـالمهتدين).**

وهنا، ظهر لي أن نلقي عليكم سؤالاً نختم به الفصل، وتحصل به الفائدة إن شاء الله، وهو ما قد ذكرتموه في بعض مقالاتكم، من ان قول الصحابي ليس بحجة، ونحن لا ننازعكم في هذا، إنما النزاع في جعلكم قول يحي بن يحي هنا حجة، وهل وجدتم له من المكانة في قلوبكم ما لم تجدوه للصحابي؟

وهذا لا أعتقده، وإنما أعتقد ان الاغراض قد تعمل في الانسان اكثر مما تعمله الصهباء في الاذهان، والله المستعان.

تمهيد للمسألة الاخيرة من المسائل الاربع
وهو الفصل الاخير من هاته الرسالة

أقول: ان الائمة المجتهدين رضي الله عنهم، كانوا في عصرهم أحرص الناس على متابعة السنة، واجتناب المبتدعات، ومذهب التصوف كان في عصرهم شائعا ذائعا، وإذاً فَلِمَ لم ينقل عنهم التنبيه عنه والتحذير منه، لو كان مخالفا للدين، او جاء على غير سنن الموحدين؟ وكنا إذاً نجده في كتبهم ونرويه عن أتباعهم بالتواتر، وبكل صراحة، كما بلغنا عنهم التحذير من الخوض في علم الكلام، وغير ذلك، مما لم يكن الخوض فيه مأثورا عن الصدر الاول، إذ لا مذهب الا وتجده يعلن التحذير من ذلك بكل صراحة. ذكر الحافظ بن عبد البر في كتابه (جامع بيان العلم وفضله) قال وعن مصعب بن عبد الله الزبيري قال: كان مالك ابن انس يقول: أكره الكلام في الدين ولم يزل اهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه، وذلك نحو الكلام في رأي جهم والقدر، وما أشبه ذلك، ولا احب الكلام الا فيما تحته عمل. فأما الكلام في دين الله وفي الله عز وجل، فالسكوت أحب إلي، لانني رأيت اهل بلدنا، ينهون عن الكلام في الدين الا بما تحته عمل.

وقال في كتاب الشهادات في تأويل قول مالك: (لاتجوز شهادة اهل البدع واهل الاهواء).

قال: أهل الاهواء عند مالك وسائر اصحابنا، هم أهل الكلام. فكل متكلم فهو من اهل الاهواء والبدع، أشعريا كان او غير

أشعري، ولا تقبل له شهادة في الاسلام ابداً، ويهجر ويؤدب على بدعته، فإن تمادى أستتيب اهـ

وهكذا ما من إمام إلا وتجد له أثرا صريحا في التحذير من الخوض في علم الكلام.

وإذاً، فما منعهم أن يأتوا بشبه تلك الصراحة في التحذير من مذهب المتصوفة، لو كان عندهم يعتبر متهما، او خارجا عن تعاليم الدين الحنيف؟ ولما لم يكن شيء من ذلك! ثبت عندنا تقريرهم عليه واحترامهم لأهله، وعلى هذا يكون سكوتهم عن التحذير من مذهب التصوف، دليلا واضحا على تقريرهم له، واعتباره من الدين بمكانة، وهذا لو لم نجد عنهم ادنى شيء يعاضده، ويدين باحترام المنتمين إليه، ولكن قد وجدنا والحمد لله ما فيه كفاية.



الفصـــل الاخيـــر
في إثبات ما به الحاجة مما ينقل عن الائمة وغيرهم من علماء الامة في الموضوع

فأقول: إنكم قد كنتم أردتم فيما جمعتموه، تعريف العموم، وتنبيه الخصوص، على ان مذهب التصوف، كان مسترذلا لدى السلف الصالح، خصوصا بين أئمة الاجتهاد، وهو الامر الذي دعاكم الى استجلاب ما استجلبتم نقله عن الأئمة من كتاب (تلبيس إبليس) وتلك النقول، وإن كانت تثبت للقوم ما يخل بكمال التربية على فرض صحة نسبتها لأهلها، فهي لا تعطي حكما باتا يقضي بزيغ المذهب، كما تحاولون الوصول اليه، وقد كنت ناقشتكم في النازلة، جملة، جملة.

أما الآن، فقد أردت ان أثبت لكم عن الأئمة عكس ما اثبتموه، وأزيدكم على ذلك نافلة، ان مذهب التصوف لم يزل محترما من لدن عصر التابعين الى يومنا هذا، بين رجال الامة، رغم من شذ، والشاذ لا حكم له.

أما جمهور الامة، وأكابر الملة، فجميعهم مطبقون على ان التصوف هو زبدة الدين، والغاية القصوى من سنن الموحدين، وكفاه فضلا، أنه عبارة عن السير في مقامات الاحسان، الذي هو احد أركان الدين الثلاثة، المصرح بها في حديث جبريل عليه السلام.

وماذا عسى تقوله الائمة، ومن لهم إطلاع على احوال قوم وهبوا

أنفسهم لله،وبذلوا جهدهم في طاعة الله،وأسسوا قوائم مجدهم على تقوى من الله،الى ان عرفوا بين الخصوص والعموم،بأنهم اهل الله وخاصته من خلقه، دانوا لله بخالص التوجه، فدانت لهم العباد واشرقت بانوار هداهم النواحي والبلاد.

وها أنا أذكر لكم ما صح نقله،عن المجتهدين وأئمة الدين، وغيرهم من الكتاب المطلعين من جهة ما يرجع للتصوف،واحترام أهله من عهد التابعين الى يومنا هذا، وبذلك تدركون كون مذهب التصوف مجمعا على اعظامه واحترامه بين سائر طبقات الامة، الا من شذ[1]، والنادر لا حكم له.

فمن ذلك،ما جاء عن الحسن البصري رضي الله عنه، الذي اتفق اكثر المحققين من مؤرخي الاسلام على أنه اول من فتح الكلام في مذهب التصوف،وأول متصدر لنشر تعاليمه بالخصوص. وهذا مما علم بالتواتر بين علماء السنة، قال العلامة ابن الحاج، في الجزء الثاني من مدخله ما نصه: إن الحسن البصري رضي الله عنه، هو أول من فتح الكلام في طريق القوم، وهو رضيع إحدى زوجات النبي ﷺ، وهي أم سلمة رضي الله عنها، وقد قيل: أن المذهب كانت تعرف رجاله باسم المتصوفة من عهده، وكان الحسن يجل ويحترم المنتمين لذلك الجناب، ويشهد لهذا ما اخرجه ابو نصر عبد الله بن علي الطوسي، المتوفي سنة 378، في كتاب اللمع، قال حاكيا عن الحسن البصري رضي الله عنه:

---

1) قلت وهذا الشاذ جدير ان يعتبر متبدعا خارجا لما أجمع عليه السواد الاعظم من خاصة الامة وعامتها.

إني رأيت صوفيا في الطواف[1] فاعطيته شيئا فلم يأخذه وقال:معي أربعة دوانق، فيكفيني ما معي. وكان الحسن يذكر ذلك على سبيل الاعجاب، بحال ذلك الصوفي. وأظنك أيها الاخ لا تجهل مكانة الحسن البصري في الاسلام، ومنزلته بين التابعين، وهذا النقل، كما أنه جاء عن الطوسي، جاء عن التجيبي ايضا، نقله عنه سيدي ابن عجيبة في شرحه على المباحث الاصلية، ومما يشهد ايضا لعظمة المتصوفة، والتصوف في نظر السلف، ما يروى عن سفيان الثوري، [2] وهو من عظماء أئمة القرن الثاني ومجتهديهم، قوله: لولا ابو هشام الصوفي [3] ما عرفت دقيق الرياء. ومن ذلك ما ذكره عنه ابن قيم الجوزية، في شرحه على منازل السائرين، انه كان يقول: أعز الخلق خمسة أنفس، عالم زاهد، وفقيه صوفي، وغني متواضع، وفقير شاكر، وشريف سني.

فتأمل يرحمك الله، قوله: لولا أبو هشام الصوفي ما عرفت دقيق الرياء. وهذا صريح في أخذه عن المتصوفة واحترامه لجانبهم.

---

1) أي هذا النقل يفيد كون كلمة صوفي، كانت معروفة من عهد الصحابة رضي الله عنهم، بناء على ان الحسن البصري أجتمع بكثير منهم ولم تكن وفاته الا في سنة (110) وقد كنت وقفت في هذا الاخر على نقل أفادتنا به مجلة المعرفة المصرية يثبت كاتبه كون كلمة صوفي كانت تطلق على الزاهد المتعبد من قبل مجيء الاسلام مستدلا بما جاء في الكتاب الذي جمع فيه أخبار مكة، عن محمد بن إسحاق بن بشار المتوفي سنة (115) وغيره قال : خلت مكة في وقت من الاوقات حتى كان لا يطوف بالبيت احد، وكان يجيء من بلد بعيد رجل صوفي يطوف بالبيت وينصرف، قلت : وهذا مما يشهد لكون كلمة صوفي، كلمة قديمة تطلق من أمثلها على أهل الفضل والصلاح هـ مصحح.

2) وكانت وفاته رضي الله عنه سنة 121.

3) وهذا ما يؤكد كون كلمة صوفي، كان لها سابق في الاصل، لان ابا هشام لم تكن وفاته رحمه الله الا في سنة 115.

ثم تأمل قوله، أعز الخلق خمسة أنفس، وذكر منها فقيه صوفي.

وأما ما جاء صريحا عن الامام مالك في هذا الباب، ونقل عنه في غير ما كتاب قوله: من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق. نقله عنه التتائي في شرحه على مقدمة ابن رشد، وكذلك الشيخ زروق في القاعدة الرابعة من قواعده، ونحن حيث تلقينا هاته القولة عن الامام من أوثق المصادر، اتضح عندنا يقينا، أنه رحمه الله، كان صوفيا لا محبا للصوفية فقط، وإلا لزم تسلط الحكم عليه المستفاد من صريح قوله: (ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق) برأه الله من ذلك.

وهذه الصراحة من الامام، كافية في إعظامه لمذهب التصوف، وكفي أنه جعله قرينا للفقه، وان الفقه بدونه عاطل، كما أن التصوف بدون الفقه باطل ، وخلاصة القول: ان الامام رضي الله عنه كان جامعا بين التصوف والفقه، وهذا لا يستبعد من الامام ما دام التصوف عبارة عن صدق التوجه الى الله عز وجل. نعم، قد يقول القائل فَلِمَ لم يظهر عن الامام نظير ما ظهر على غيره من المنتمين للتصوف، كالحارث المحاسبي في ذلك العصر وطبقته؟

الجواب، ان عذر الامام، (يعني الامام مالك رضي الله عنه) في ذلك، هو قيامه بما دعت إليه الضرورة من لزوم حفظ القواعد الفقهية، وضبط النقول الشرعية خصوصا، وهو يرى من نفسه الكفاءة للأمر الذي لم يتوفر لغيره غالبا. وكل ذلك لا يمنع ان يختص الامام في خاصته، وحد ذاته، بما اختص به غيره من خاصة

المتصوفة، بأن تكون له المشاركة في علمهم، ودقائق أسرارهم التي أمروا بعدم إفشائها لغير أهلها، وقد أثبت ذلك لنفسه، حسبما نقله عنه أبو إسحاق الشاطبي في الجزء الرابع صحيفة (361) من كتاب (الموافقات) قال: وأخبر مالك عن نفسه أنه عنده أحاديث وعلوم ما تكلم فيها ولا حدث بها. وذكر الشيخ جنون[1] في تعليقه على الموطأ، نقلا عن القاضي عياض.

قال: وبلغ شيوخ الامام مالك تسعمائة شيخ، ثلاثمائة من التابعين، وستمائة من تابعيهم ممن أختاره لدينه وفقهه وتيقظه. ولزم ابن هرمز كما في المدارك ثلاثة عشر سنة، ويروى ستة عشر سنة من الصباح الى الزوال في علم. قال مالك: لم ابثه لأحد من الناس. انتهى بلفظه.

وعليه فهل ترى، أيها الاخ، أن هذا العلم المخبر عنه، هو من مدخول الفقه؟ فما أظن، إذ لو كان كذلك لما ساغ له كتمانه، لما أن الفقه في الدين يشترك في لزوم معرفته جميع المكلفين، ويجل عن كتمانه العلماء الأعلام لِمَا في آية الكتمان وحديث الالجام، ولكنك تستبعد ان يكون لمالك من العلوم الموروثة عن النبي ﷺ غير ما دونه للعموم، وهذا الاستبعاد إنما يتصور مع عدم الاطلاع على ما أشتملت عليه دفاتر السنة، من النصوص المثبتة لنظير ذلك. وإليكم ما أخرجه البخاري رضي الله عنه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: حفظت عن رسول الله ﷺ، وعاءين

---

1) يتلفظ بها جيما مصرية.

من العلم أما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته،لقطعتم مني هذا البلعوم.

ولا شك أن هذا صريح في تأييد ما أخرجه الشاطبي وغيره عن الامام مالك، وليس هذا الخبر مما ينفرد به ابو هريرة رضي الله عنه، ولا مما ينفرد بنقله البخاري أيضا، فان المطلع لا تستعصي عليه النقول الصحيحة، التي يستشهد بها في هذا الباب من قول السلف،[1] وهذا ملخص ما يرجع للإمام مالك من جهة علاقته بالتصوف.

أما ما ينقل عن الامام أبي حنيفة النعمان رضي الله عنه في التصوف، فليس هو بأقل من ذلك؛ ذكر صاحب النصرة النبوية، وهكذا صاحب كتاب أهل الفتوحات والأذواق: ان الإمام رحمه الله كان محبا للصوفية محترما لمكانتهم، ولربما يوجد له من التساهل معهم مالم يوجد لغيره من الأئمة.[2] قال المخبر: إنه كان

---

1) ويشهد لذلك ما أخرجه الشعراني في اليواقيت والجواهر وغيره من الحفاظ عن ابن عباس رضي الله عنهما: لو قلت لكم ما أعلم من تفسير قوله تعالى: (**يتنزل الأمر بينهن**) لرجمتموني أو لقلتم إني كافر. ويترجم عن ذلك أيضا ما يروي عن الامام زين العابدين ابن الحسين رضي الله عنهما حيث يقول:

يا رُبَّ جوهر علم لو أبوح به * لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمي * يرون أقبح ما يأتونه حسنا
إني لأكتم من علمي جواهره * كي لا يرى ذاك ذو جهل فيفتتنا
وقد تقدم في هذا أبو حسن * الى الحسين وأوصى قبله الحسنا

ذكره الامام الغزالي في منهاج العابدين، قلت: وكل ما ورد في هذا الباب هو مصداق ما أخرجه الديلمي في مسند الفردوس عن رسول الله ﷺ أنه قال: « **إن من العلم كهيأة المكنون لا يعلموه إلا العلماء بالله فاذا نطقوا به أنكره أهل الغرة بالله** ».

2) قلت وهذا النقل الذي أثبته صاحب الاصل يباين ما يشاع عن الامام من كونه أفتى هو او أصحابه بحفر البقعة التي يتحلق فيها للذكر ويرمي بترابها؟ على أننا لا نرضى أن توجد فتوى

في بلدنا طائفة يرقصون للذكر، حتى يسقطوا على الارض، ولم ينكر عليهم الإمام، ويزورونه ويكرمهم، ويسألونه ويجيبهم؛ ومن ذلك أنه قال شيخهم مرة للإمام: ما تقول يا سيدي رضي الله عنكم في مسألة، هي أن جماعة من أمة محمد ﷺ دخلوا الكنيسة واجتمعوا بها حلقة، وتداولوا ذكر الشيطان بصوت مرتفع من الصباح الى المساء، أفتنا فيهم أهم كفار؟ فأجاب رضي الله عنه: لا يكفر أحد من أهل القبلة بالذنب، وهذا ليس بذنب.

فتأمل قوله: هذا ليس بذنب، ثم قسه على ما يفعله المتصوفة، وهكذا ذكر أنه سئل عما يفعله الصوفية في الحضرة، وما يتظاهرون به، أهم صادقون في ذلك؟

فأجاب: إن لله رجالا يدخلون الجنة بدفوفهم ومزامرهم. وما قال هذا رضي الله عنه إلا سدا لذريعة الاعتراض عن المنتسبين الى الله، والله أعلم.

ولا تفهم أيها الاخ ان غايتنا في إثبات هذا النقل الانتصار لشبه الدفوف والمزامير، مما يفعله بعض الملتصقين بالقوم، إنما الغرض هو ان نذكر لك كيف كان تساهل الامام مع المنتسبين للتصوف، ولو مع ارتكابهم لبعض المشتبهات، وهذا ما يخص

عن الامام بهذ الشكل الذي لا ينطبق على أي حكم من احكام العقلاء، فضلا على أن يوجد نظيره في أحكام الشرع الشريف، ولهذا ردت المقالة ردا شنيعا من رجال مذهب الامام، وممن بالغ في ردها صاحب تحفة الفتاوي والشيخ أبو الحسن بن منصور والشيخ عبد الكريم وكلهم من رجال المذهب، حتى قالوا: ان من أفتى بها يعتبر من أهل الاعتزال. وقال الشيخ عبد الكريم إن الذي زورها عن الامام، هو ابن شرحان الفزاني دمره الله. وهؤلاء المذكورون هم الذين نقلوا عن الامام موالاته ومحبته للمتصوفة وغير ذلك مما أثبت في الاصل.

أبا حنيفة رضي الله عنه باختصار. وأما ما جاء عن الامام الشافعي رضي الله عنه، فيزيد على ذلك بكثير، حسبما نقل عنه في غير ما كتاب، وممن تتبع ذلك الامام الشعراني في غالب كتبه، وأثبت عنه أنه كثيرا ما كان يداوم مجالسة الصوفية حتى قيل له في ذلك، فقال: استفدت من مجالستهم أمرين، لم أستفدهما من مشائخ العلم، قولهم: (الوقت سيف، إن لم تقطعه قطعك) وقولهم: (أشغل نفسك بالخير فان لم تشغلها بالخير شغلتك بضده) ذكره النووي في شرح المذهب. وقال الشعراني: كثيرا ما كان الشافعي يوصي الإمام أحمد باحترامهم ومجالستهم أيضا، ويشهد لذلك ما جاء في كتاب جامع الاصول، أن الشافعي والإمام أحمد رضي الله عنهما، كانا يترددان الى مجالس الصوفية ويحضران معهم في مجالس ذكرهم. فقيل لهما: ما لكما تترددان الى مثل هؤلاء؟ فقالا لهم: إن هؤلاء عندهم رأس الأمر كله، وهو تقوى الله ومحبته.

وكان الشعراني يقول: كفى القوم مدحا إذعان الإمام الشافعي لشيبان الراعي. وهكذا ذكر إذعان الامام أحمد له، بعد ما ذكر عدة حكايات جرت بينهم في مسائل علمية فلتراجعوا تلك المظان إن كانت لكم سعة من الوقت.

وبالجملة، ان إذعان أئمة الإجتهاد لرجال التصوف كان مشتهرا في ذلك العصر، وعلى الأخص منهم الإمام الشافعي رحمه الله. وقد ذكر الشيخ المختار الكنتي في كتابه (جذوة الأنوار)، ان الامام كان كثير الانتحاء للأولياء، متفانيا في حبهم، وكان يقول: (هم أصلي وفصلي وإليهم يحن قلبي).

الى أن رماه بعض المعتزلة بالرفض، فقال مجيبا لهم:

قالوا ترفضت قلت كلا ☆ ما الرفض ديني ولا اعتقادي
لكن توليت غير شك ☆ خير إمام وخير هاد
إن كان حب الولي رفضا ☆ فإني أرفض العباد

ونحن إذا نظرنا الى انتماء الإمام للصالحين، وحبه للمتصوفة، وكثرة مجالسته لهم، لا نستبعد ان يكون له نصيب من المشاركة في علومهم، حسبما تقدم عن الإمام مالك رضي الله عنهما[1]، وهذا ما يخص الشافعي رحمه الله.

وأما ما يخص الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه من جهة علاقته بالتصوف، فإنه يعتبر أكثر بكثير مما جاء عن غيره، والمعنى ان ركونه لمذهب القوم، كان معروفا بالضرورة لدى المطلعين لوروده عنه في غير ما طريق، فكان يجالسهم ويحبهم ويحث على مجالستهم. ذكر الشعراني في طبقاته عن العلامة قطب الدين بن أيمن قال: كان الامام أحمد يحث ولده على الاجتماع بالصوفية، ويقول انهم بلغوا في الاخلاص مقاما لم نبلغه.

قلت، وقد كان هذا منه رضي الله عنه، بعد إختباره لهم وعلمه

---

1) قلت وهذا مما يتبادر للفهم حسبما ينقل عنه حيث يقول: رضي الله عنه في نظم له.

ساكتم علمي عن ذوي الجهل طاقتي * ولا أنثر الدر النفيس على البهم
فإن قدر الله الكريم بلطفه * ولاقيت أهلا للعلوم وللحكم
بذلت علومي واستفدت علومهم * وإلا فمخزون لدي ومكتم
فمن منح الجهال علما أضاعه * ومن منع المستوجبين فقد ظلم

على اننا ملزمون بحمل ما أشار إليه الامام من لزوم كتمانه لعلمه، يعني به غير العلم المتعلق بأحكام التكليف، لأنه لا يحل كتمانه بحال، والله أعلم.

يقينا من كونهم أُنَاساً أفردوا وجهتهم لله وأخلصوا له في معاملتهم سرا وعلانية. قال الشعراني رحمه الله في طبقاته عند ترجمته للحارث المحاسبي: قيل لأحمد بن حنبل رضي الله عنه، إن الحارث المحاسبي، يتكلم في علوم الصوفية، ويحتج لها بالأثر والحديث، فهل لك أن تسمع كلامه من حيث لا يشعر بنا؟ فقال: نعم. فحضر معه ليلة الى الصباح، ولم ينكر من أقواله ولا من أحواله ولا من أحوال أصحابه شيئا، قال: لأني رأيتهم لما اذن المغرب تقدم فصلى، ثم حضر الطعام فجعل يحدث أصحابه وهو يأكل، وهذا من السنة. فلما فرغوا من الطعام وغسلوا أيديهم، جلس وجلس أصحابه بين يديه. وقال: من أراد منكم أن يسأل عن شيء فليسأل، فسألوا عن الرياء والإخلاص، وعن مسائل كثيرة، فأجاب عنها واستشهد بالأثر والحديث، فلما مر جانب من الليل أمر الحارث قارئا يقرأ، فبكوا وصاحوا وانتحبوا، ثم سكت القاريء فدعا الحارث بدعوات خفاف، ثم قام الى الصلاة فلما أصبحوا، اعترف أحمد رضي الله عنه بفضله وقال: كنت أسمع عن الصوفية خلاف هذا فاستغفر الله العظيم أهـ.

ومن يومه أصبح يعتني رضي الله عنه بمجالسة الصوفية، ويحتفظ بما يسمعه من كبرائهم. قال: الشعراني: إن الامام أحمد كان يبعث لأبي حمزة البغدادي، يسأله في المسائل الدقيقة، ويقول له: ما تقول في هذا يا صوفي؟ فيجيبه أبو حمزة بما فتح الله عليه، وكان يعجب بما يسمعه من الحكم عن أبي سليمان الداراني.

قال يحي بن معين : تلاقى الإمام أحمد مع أحمد بن أبي الحواري ، فقال الإمام أحمد : حدثنا يا ابن أبي الحواري بحكاية سمعتها من شيخك أبي سليمان . فقال ابن أبي الحواري: قل سبحان الله ! فقال الإمام:سبحان الله وطولها بلا عجب . فقال ابن أبي الحواري:سمعت أبا سليمان يقول : إذا أعتادت النفوس ترك الآثام، جالت في ملكوت السموات والارض،ورجعت لصاحبها بطرائف الحكمة من غير أن يؤدي إليها عالم علما . قال ، فقام الامام ثلاثا وجلس ثلاثا ، وقال ما سمعت في الاسلام بحكاية أعجب إلي من هاته الحكاية. ثم ذكر حديث «**من عمل بماعلم ورثه الله علم ما لم يعلم**» نقله عنه في كتاب (جذوة الانوار) للشيخ المختار الكنتي.

وبالجملة، فإن الامام أحمد رضي الله عنه كان على جانب عظيم من جهة احترامه للمنتسبين لمذهب التصوف ، ويشهد لهذا ما جاء في كتاب الحدائق ، للإمام ابن سعيد النيسابوري ، أنه قيل للإمام أحمد بن حنبل : إن هؤلاء الصوفية جلسوا في المساجد على التوكل بغير علم ، قال العلم أقعدهم . فقيل: ان همتهم كبيرة قال : لا أعلم قوما على وجه الارض أحسن من قوم همتهم كبيرة. فقيل له: إنهم يقومون فيرقصون. فقال : دعهم يفرحون بربهم ساعة.

ونظير هذا ما نقله المناوي في طبقات الاولياء، في ترجمة الامام أحمد رضي الله عنه، فقد عبر عن الواقعة بعينها.

فتأمل يرحمك الله، ما أبداه هذا الامام من التساهل مع رجال التصوف ، ومما يزيدك يقينا في إثبات ما قدمناه، ما ذكره العلامة

الشيخ أحمد المواز المغربي، في كتابه حجة المنذرين، قال : قال الإمام الغزالي: أن الإمام أحمد وابن معين كانا يختلفان الى معروف الكرخي، ويسألانه، ولم يكن في علم الشريعة مثلهما، فيقال لهما: مثلكما يفعلان هذا ؟ فيقولان: كيف نفعل، إذا جاءنا أمر لم نجد له نصا في الكتاب، ولا في السنة؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم: **« سلوا الصالحين »**.

وإلى هنا ينتهي بنا ما وعدنا بنقله عن الأئمة الأربعة، وفي ظني أنه يعتبر كافيا في نقض ما حاولتم إثباته عنهم من كونهم كانوا، برأهم الله، لا يقيمون وزنا للتصوف وأهله، اعتمادا منكم علي مجرد ما وقع بأيديكم من كتاب (تلبيس إبليس) قاطعين النظر عما وراء ذلك، مما حوته كتب الفروع والأصول، وفي ظني ان هذا مما يعتبر شبه خيانة في النقل لفاعله، وتدليسا في الرواية، وشأن الناقل أن يكون أمينا.

على أننا، لو لم نعثر على أي نقل عن الأئمة يبرر ساحة المتصوفة في عصرهم، لاعتبرنا سكوتهم عنهم تقريرا للمذهب من كونه من السنة بمكان، حسبما قدمناه في صدر الكلام. فكيف إذا وجدنا عنهم من الآثار والأخبار ما هو واضح الدلالة، صريح البيان في تعضيد المذهب وإحترام أهله حسبما رأيتموه. وهذا ما تأتى لنا إثباته عن الأئمة من جهة علاقتهم بالتصوف. وأنت إذا أردت ما هو أبين من هذا أعني الأمر الذي يثبت لكم، كون التصوف كان مذهبا عاما لأهل الصدر الاول، لا فرق بين صحابة وتابعين، فلتراجع ما أثبته مؤرخو الاسلام في الموضوع، فإنك تجد

ما حاولنا إثباته يعتبر كلا شيء، لان غاية محاولتنا تنحصر في مجرد نسبة أفراد مخصوصة للتصوف من رجال السلف. ولكن العلامة ابن خلدون رحمه الله، لم يقتصر على نظير ما أثبتناه، بل صرح، وهكذا صرح غيره، بأن طريق المتصوفة، كان أول من تظاهر بها الصحابة ثم التابعون وهلم جرا.

قال في مقدمته، عند تعريفه للتصوف ما نصه: إن طريق هؤلاء القوم يعني الصوفية، لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين [1] ومن بعدهم، طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة وجاه والإنفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف، ثم فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس الى مخالطة الدنيا، فاختص المقبول على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة. وأظنك أيها الأخ، لا تنكر ان هذا المؤرخ الجليل، الذي يعترف له العالم أجمع بنقده وتحقيقاته له من الإطلاع أكثر مما لكم على ما يظهر؟ وهذا هو قد أثبت لكم

---

(1) [illegible]
وصدر السلف الصالح في عدد رجال التصوف على أن العلامة ابن خلدون رحمه الله لم يكن ممن يرسل قلمه على غير تثبت وترو فيما يكتبه والله أعلم. وها هو يثبت أن طريق التصوف هي التي كانت عامة في الصدر الاول لا فرق بين [illegible] وفي هذا الامير عبد القادر الجزائري رحمه الله في كتاب [المواقف في التصوف] قال : طريقة توحيدنا ما هي طريقة المتكلمين ولكن طريقة توحيد الكتب المنزلة وسنة الرسل المرسلة، وهي التي كانت عليها بواطن الخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين والسادات العارفين، وإن لم يصدق الجمهور والعموم، فعند الله إجتماع الخصوم اهـ.

بأن التصوف كان مذهبا شاملا عاما لأهل الصدر الأول. ولولا ذلك لما صح وصف ما وصفه العلماء الأجلة، من كونه أسنى المقامات، وان المنتمين إليه، يعتبرون في أعلى درجات الكمال بعد النبوة. قال الشيخ سيدي أحمد زروق، في بعض تراجمه على مقطعات الششتوري، لما تكلم على طريق التصوف، قال: أنتجها الصالحون من أولياء الله، وظهرت نتيجتها في كثير من عباد الله، واشتملت على رجال قاموا بأحكام الشريعة، وآداب الحقيقة، وتعلقوا بأسماء رب العالمين، وتخلقوا بأخلاق سيد المرسلين، آثارهم حميدة، وملاقاتهم سعيدة، ترغب. الملائكة في خلتهم وتشتاق الأنبياء والرسل لرؤيتهم، كتاب الله مطرز بالثناء عليهم، وبشائر السنة كلها تشير إليهم، عند ذكرهم تنزل الرحمات وبسبب وجودهم ترفع النقمات إلخ.

وقال في شرحه على الحكم في تعريف التصوف، أنه بمنزلة الروح، والفقه جسده، إذ لا ظهور له، إلا فيه، كما لا قيام للجسد، إلا به. ثم قال: إن نظر الصوفي أخص من نظر الفقيه والأصولي، فلهذا صح إنكارهما عليه، ولا يصح إنكاره على واحد منها. وصوفي الفقهاء، خير من فقيه الصوفية. وقال في القاعدة الرابعة من قواعده: فلا تصوف إلا بفقه، إذ لا تعرف أحكام الله الظاهرة إلا منه، ولا فقه إلا بتصوف، إذ لا عمل إلا بصدق وتوجه، ولا هما إلا بإيمان، إذ لا يصح واحد منهما دونه، فلزم الجميع لتلازمها في الحكم كتلازم الأرواح للأجساد، ولا وجود لها إلا فيها، كما لا حياة لها إلا بها. فافهم اهـ.

ونظير هاته النقول لا تحصى كثرة، ولكن، حضرة الأخ، لا يقنعه إلا ما كان صدوره ممن اشتهر بعلم الفقه أكثر منه بالتصوف. ولهذا، ظهر لي أن نستطرد له نصوصا ممن لا يرتاب فيه عنده، رجاء أن تعتبر كافية لديه في صحة ما أثبتناه. فمن ذلك ما جاء عن الإمام الشاطبي رحمه الله في كتاب الموافقات له حيث قال: الصوفية حجة في علومهم، وهم صفوة الله من خلقه باتفاق. وقال أيضا: جعل الله هاته الطائفة صفوة أوليائه، وفضلهم على الكافة من غير تميز، بعد الرسل والأنبياء عليهم السلام اهـ.

وليس هذا التعريف مما يخص أبا إسحاق الشاطبي بانفراده، حتى تكون حياله، كالمتردد من جهة القبول وعدمه، بل يشاركه فيه كل عالم بالسنة، وإنما الشاطبي كالمترجم عن حقيقة الواقع. ومن ذلك، ما جاء عن العلامة ابن قيم الجوزية، في شرحه على (كتاب منازل السائرين) قال: فالعارف صاحب ضياء الكشف أوسع باطنا وقلبا وأعظم إطلاقا من صاحب العلم ونسبته إليه كنسبة صاحب العلم الى الجاهل، فكما ان العالم أوسع باطنا من الجاهل، وله إطلاق بحسب علمه، فالعارف بما معه من روح العلم وضياء الكشف ونوره، هو أكثر إطلاقا، وأوسع باطنا من صاحب العلم، فيتقيد العالم بظواهر العلم وأحكامه، والعارف لا يراها قيودا اهـ.

قلت: ويشبه هاته التعاريف للصوفية رضي الله عنهم، ما قد ذكره الشيخ محمد عبده المصري، في شرحه على مقامات بديع الزمان الهمداني، عند قول المصنف: فلما تجلينا وأخبرنا بحالنا، أسفرت القصة عن أصل كوفي، ومذهب صوفي.

قال الاستاذ الشارح : والصوفي نسبة الى الصوفية، وهم طائفة من المسلمين، همهم من العمل، إصلاح القلوب، وتصفية السرائر، والاستقبال بالأرواح وجهة الحق الأعلى جل شأنه حتى تأخذهم الجذبات عمن سواه، وتفنى ذاتهم في ذاته، وصفاتهم في صفاته، والعارفون منهم، البالغون الى الغاية من سيرهم، في أعلى مرتبة من الكمال البشري بعد النبوة اهـ.

قلت وما كانت هاته العقيدة من الشيخ محمد عبده في رجال التصوف من كونهم في أعلى مرتبة من الكمال البشري بعد النبوة، إلا منتزعة من صميم عقيدة سلف الأمة، على أنها عقيدة الحق الصرف.

قال الإمام أبو حامد الغزالي في رسالته التي جاءت ذيلا على كتاب (مشكاة الانوار في وصف العارفين بالله بالإضافة للعلماء) قال : ما جعل لغيرهم وعدا، جعل لهم نقدا، وما جعل لغيرهم غيبا، شاهدوه عيانا، فهم في زواياهم، وعلى سجاداتهم وهم في الشرق، وهم في الغرب، وهم في الفرش، وهم في العرش، وهم وإن لم يعرجوا بأشباحهم، فقد عرجوا بأرواحهم، [1] وإن لم يشاهدوا الحق بأبصارهم، فقد شاهدوه بأسرارهم، فهم صفوة الحق ومقصود الكون من الخلق، بهم يرزقون، وبهم ينصرون، أخلصوا لله في العبودية والتوحيد، وصدقوا في الإرادة والتجريد، فطوبى لهم بل طوبى لمن آمن بهم اهـ.

---

1) قلت ويشبه هذا التعريف ما ذكره الملاوي في شرحه على قصيدة ابن سنا قال : ان الصوفي مع الله بلا مكان، وحاله كائن بائن.

قلت: وهاته الأخلاق التي خصصوا بها، هي التي أكسبتهم هيبةً، وأورثتهم عظمة في نظر الخلق، وعلى الأخص المستبصرين منهم. قال الإمام القشيري رحمه الله، وهو ممن يعتمد عليه في النقل عند جمهور العلماء: لم يكن عصر في مدة الإسلام وفيه شيخ من هاته الطائفة (يعني الصوفية) إلا وأئمة ذلك الوقت من العلماء قد أستسلموا لذلك الشيخ، وتواضعوا إليه، وتبركوا به.[1] ولو لم تكن مزية للقوم، لكان الأمر بالعكس، نقله في النصرة النبوية.

ويشهد لهذا ما ذكره الشعراني رحمه الله في طبقاته قال: اجتمع الأولياء والعلماء في واقعة الافرنجة بالمنصورة قريبا من ثغر دمياط، جلس الشيخ عز الدين والشيخ مكين الدين الأسمري والشيخ دقيق الدين بن دقيق العيد واضرابهم، وقرأت عليهم رسالة القشيري وصار كل واحد يتكلم إذ جاء أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه، فقالوا له نريد أن تسمعنا شيئا من معاني هذا الكلام فقال: أنتم مشائخ الإسلام، وكبراء الزمان، وقد تكلمتم فما بقي لكلام مثلي موضع. فقالوا: لا، بل تكلم. فحمد الله وأثنى عليه

---

1) ولو أننا تتبعنا بعض الجزئيات مما يتضمنه التاريخ لما فاتنا أن ندرك كون رجال التصوف، كانوا في أعظم منزلة في نظر الأمراء وجمهور العلماء. ذكر في كتاب (خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى) للشيخ السمهودي ما ملخصه: أن في سنة الثمانية وأربعين وخمسمائة، أنهم سمعوا صوت هدة في الحجرة النبوية، وكان الأمير على المدينة قاسم بن مهني، فاستعظموا الأمر من جهة من يستحق النزول للقبر الشريف لينظر ما هنالك، فلم يقع إختيارهم إلا على شيخ مشايخ الصوفية، فألزموه بذلك الى آخر القصة. وذكر ابن النجار: ان في شهر ربيع الاخر من سنة أربع وخمسين وخمسمائة في أيام الأمير قاسم، وجدوا في الحجرة رائحة نتينة، فأنزلوا أحد خدام الحجرة، ومعه رجل صوفي أيضا لينظر ما هنالك الى آخر الحكاية. والشاهد عندنا فيما كانت عليه منزلة المتصوفة في نظر أهل العصر الاول.

وشرع يتكلم، فصاح عز الدين من داخل الخيمة، وخرج ينادي بأعلى صوته: هلموا الى هذا الكلام القريب العهد من الله تعالوا فاستمعوه اهـ.

وفي طبقات الشعراني أيضا قال: يكفينا منقبة للقوم إذعان أبي العباس بن سريج للجنيد حين حضر مجلسه، وقال لا أدري ما يقول، ولكن لكلامه صولة ليست بصولة مبطل. وكذلك إذعان أبي عمران للشبلي، حين أمتحنه في مسائل من الحيض، فأفاده سبع مقالات لم تكن عند أبي عمران. ومثل ذلك إذعان الامام الشافعي رضي الله عنه لشيبان الراعي، حين طلب منه الإمام أحمد ابن حنبل يسأله عمن نسي صلاة لايدري أي صلاة هي، وإذعان الإمام أحمد لشيبان كذلك حين قال شيبان: هذا رجل غفل عن الله عز وجل فجزاؤه ان يؤدب. وكذلك يكفينا إذعان الإمام أحمد رضي الله عنه لأبي حمزة البغدادي الصوفي رضي الله عنه، واعتقاده حين كان يرسل له دقائق المسائل، ويقول له ما تقول في هذا يا صوفي. وذكر ذلك مطولا في ترجمته لأبي حمزة، وكان يقول الشعراني: فشيء يقف في فهمه الإمام أحمد، ويعرفه أبو حمزة غاية المنقبة للقوم.

وبالجملة، فإن رجال التصوف كانوا في أرفع منزلة في نظر الأئمة المجتهدين. وقد سئل العز بن عبد السلام رحمه الله عن قول القشيري، وقول أبي حامد رضي الله عنهما: (الصوفية أفضل من العلماء الراسخين) فقال: قول أبي حامد والقشيري متفق عليه ولا يشك عاقل أن العارف بأحكام الله أفضل من العارفين بالله، بل،

العارفون أفضل من أهل الفروع والاصول اهـ. (نقله في كتاب نجوم المهتدين). وكان يقول: من أعظم الدليل، على ان طائفة الصوفية، قعدوا على أعظم أساس الدين، ما يقع على أيديهم من الكرامات والخوارق، ولا يقع شيء من ذلك لفقيه، الا إذا سلك مسلكهم كما هو مشاهد اهـ. (نقله في النصرة النبوية) قلت وهذا مما يشهد به الواقع. فإنه قل ان يوجد عالم ممن اشتهر صيته فارغ الذمة من الإنتساب الى مرشد من رجال التصوف. ولو أنك أقتصرت على ما بيدك من المؤلفات المتداولة في مبادئ العلوم، لما فاتك ذلك. قال ابن حمدون في حاشيته على الأجرومية عند قول الأزهري، حملني عليه شيخ الوقت والطريقة ومعدن السلوك والحقيقة قال: الحقيقة هي أن يودعه الله نورا يستوي عنده الظاهر والباطن والحاضر والغائب، وإنما قال، حملني عليه الخ إشارة، الى الله تعالى، إنما فتح عليه بسبب صحبة ذلك الولي، وكذلك أغلب من يشار لهم من علماء الظاهر، إنما حصل النفع بهم، بسبب صحبة ولي من علماء الباطن، كابن النحاس، بسبب أبي العباس المرسي، وكعز الدين بن عبد السلام، بسبب أبي الحسن الشاذلي اهـ.

وحقيق، أنك لو تتبعت المظان، لما فاتك أيها الأخ ان تدرك ذلك. قال العلامة الصاوي، في شرحه على جوهرة التوحيد: كان الشيخ سيدي إبراهيم اللقاني، يعني صاحب الجوهرة، من أرباب الأحوال والكشف. وأنشد هذه المنظومة ليلا، بإشارة شيخ التربية في التصوف، سيدي محمد أعراب. وقال سيدي إبراهيم اللقاني: قد شاهدت من الشيخ المذكور، يعني سيدي محمد أعراب، كرامات

خارقة للعادة، وسمعت منه علوما لم نسمعها من غيره، (يعني من مشايخ العلم الظاهر) اهـ. وما كان احد من العلماء الراسخين يجهل فضل التصوف ومكانة رجاله.

قال العلامة الباجوري، في حاشيته على جوهرة التوحيد، بعد كلام على علم التصوف ومقاصده، والحق أن التصوف ثمرة جميع علوم الشريعة، فتأمل يا حضرة الأخ.

وقال في حاشيته على الشيخ خالد الأزهري عند قول الشارح، حملني عليه شيخ الوقت والطريقة ومعدن السلوك والحقيقة، أي شيخ أهل الطريقة، وهم السادات الصوفية. والسلوك عندهم، العمل بالطريقة الموصلة الى الله، والحقيقة هي أن يشهد بنور أودعه الله في سويداء قلبه، إن كل باطن له ظاهر وعكسه وهي باطن الشريعة وملازمة لها، فالحقيقة بدون شريعة باطلة، والشريعة بدون حقيقة عاطلة.

ثم تأمل، يرحمك الله، قول الأخضري، إن شئت في نظمه (الجوهر المكنون) في باب المسند إليه، منوها بشرف طريق القوم بقوله:

حبذا طريقة الصوفية * تهدي الى مرتبة عليه

قال شارحه الدمنهوري رحمه الله: إنما كانت طريقة الصوفية محمودة، لأنها توصل الى المرتبة العالية، وهو مقام الإحسان، وهو أن تعبد الله كأنك تراه، لأن طريقتهم عبارة عن صفاء الباطن، والوقوف عند الأمر والنهي، فينبغي لكل طالب علم أن يسلكها، فإنه وإن لم يصل الى غايتها العظمى، وهي معرفة الله جل جلاله،

فلا اقل من الدخول في دائرة الورع ورقة القلب الخ.

وهذا هو شأن علماء الإسلام، فقل أَنْ تخلو مؤلفاتهم من التعريف بالتصوف، وذكر مقاصده الجليلة، ولو على سبيل الإستطراد.

قال الجرجاني في تعريفاته، وهو بصدد حل بعض الألفاظ اللغوية ما نصه: التصوف، مذهب كله جد، فلا يخلطه شيء من الهزل، وقيل: نظافة من مخالطة البرية، وموافقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد صفات البشرية، ومجانبة الدعاوي النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بعلوم الحقيقة، واستعمال ما هو أولى على السرمدية، والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله تعالى على الحقيقة، واتباع رسول الله ﷺ في الشريعة اهـ. قلت: ومهما كان التصوف عبارة عن هاته الأخلاق، التي شأن المؤمن أن يجعلها نهاية آماله، وغاية قصده، فجدير بنا أيها الأخ أن نحترم مكانة التصوف، لأن احترامها، احترام للدين في الواقع، على أن الجرجاني لم يزد في تعريفاته عما نقل عن علماء السنة في الموضوع.

قال أبو قاسم النصرابادي: أصل التصوف، ملازمة الكتاب والسنة وترك البدع والأهواء، وتعظيم حرمات المشايخ، ورؤية أعذار الخلق، والمداومة على الأوراد، وترك ارتكاب الرخص والتأولات.

وقال العلامة ابن زكري، في نظم له في تعريف التصوف، نقله الشيخ ميارة في شرحه الكبير:

علم بــه تصفيــة البواطــن ☆ من كدرات النفس في الموطن
بــه وصــول العبــد للإخلاص ☆ روح العبــادة بالإختصــاص
وذاك واجــب على المكلــف ☆ تحصيله يكــون بـــالمعرف

قلت: إن ما أثبته حضرة الإمام ابن زكري، من وجوب تحصيل علم التصوف، لا ينبغي أن يختلف فيه بين المسلمين ما دام عبارة عن السير في مقام الإحسان، الذي هو أحد أركان الدين الثلاثة، إنما المختلف فيه عندهم بين الندب والإيجاب، هو اتخاذ المرشد المستعان به على طريق السير الى الله عز وجل. قال في كتاب (سعود المطالع) للشيخ عبد القادر الابيري، (واتخاذ شيخ عالم عارف بعلاج النفس الأمارة ودسائسها الخفية، يطهر الإنسان من النجاسة المعنوية، فرض عين) كما نص عليه الغزالي، وابن عبد السلام، والسبكي، والسيوطي، وشيخ الإسلام، والناصر اللقاني، وزروق من السادات المالكية، وخير الدين الرملي من السادات الشافعية، والحموي من السادات الحنفية، والهروي وابن النجار من الحنابلة، لأن ما لا يتم الواجب الا به فهو واجب. وقال الامام الشعراني: أجمع أهل الطريقة على وجوب اتخاذ الإنسان له شيخا يرشده الى زوال الصفات، التي تمنعه من دخول حضرة الله تعالى بقلبه، لتصح صلاته من باب ما لا يتم الواجب الا به فهو واجب، ولا شك أن علاج أمراض الباطن من حب الدنيا، والكبر، والعجب، والرياء، والحسد، واجب.

قلت، وعلى القول بالوجوب، بنى حديثه جلالة الأمير[1] عبد القادر الجزائري، في نظم له، مرجعه الى وجوب إتخاذ شيخ التربية.

عجبت لباغي السير للجانب الذي
تقدس سرا لا يجد به السير
إليه ويلقي نفسه بفنائه
بصدق تساوي عنده السر والجهر
فيلق مناخ الفضل والفضل واسع
ويلق فراتا طاب ورده والصدر
ويلق رياضا أزهرت بمعارف
فيا حبذا المرأى ويا حبذا الزهر
ويلق جنانا فوق فردوسها العلي
وما لجنان الخلد إن عبقت نشر

ثم أقول: إنّ جميع ما قدمناه من أقوال العلماء ونصوصهم، هي كما تراها متفقة على أن التصوف مما يجب تحصيله على كل مكلف، وأنه عبارة عن تدرج المكلف بمقامات الإحسان والترقي،

1) قلت وللأمير رحمه الله مشاركة نهائية في مشرب القوم الصوفية ومن أراد الوقوف على ذلك، فعليه بمطالعة كتابه المسمى (بالمواقف) قد طبع في هذا الأخر على ما بلغنا، فإنه يجد فيه أقصى ما يمكن أن تنتهي إليه عبارة المتصوفة، وقد كان له ذلك بعد هجرته ومجاورته بالحرم الشريف، وإجتماعه بشيخ التربية الشيخ سيدي محمد الفاسي، فنال على يده وبركاته ما جعل لسانه ينهل بالثناء عليه، وهو الأمر الذي دفعه أن يقول بوجوب إتخاذ شيخ التربية حسبما نقل عنه في الأصل من تلك الأبيات، وهي من قصيدة طويلة ذات جواهر نفيسة، نقلت برمتها في كتابه [تحفة الزائر).

في معارج خصاله، إذ لا شيء هناك زائد في الدين، عن مقام الإسلام والإيمان والإحسان.

قال العلامة ابن السبكي رحمه الله: علوم الشريعة ثلاثة، الفقه، وإليه الإشارة في حديث إبن مسعود، وابن عمر رضي الله عنهما بالإسلام. وأصول الدين، إليه الإشارة بالإيمان. والتصوف إليه الإشارة بالإحسان. وما عادا هذه العلوم إما راجع إليها وإما خارج عن الشريعة اهـ. نقله في البراهين القاطعة.

وملخص ما يؤخذ من هاته النقول، أن رجال التصوف المحققين، هم البقية الباقية، التي تمثل ما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين، رضوان الله عليهم أجمعين. قال الإمام أبو إسحاق الشاطبي رحمه الله في الجزء الأول من كتاب [الإعتصام] صحيفة [120] (إن الصوفية الذين نسبت إليهم الطريقة، مجمعون على تعظيم الشريعة، مقيمون على متابعة السنة، غير مخلين بشيء من آدابها، أبعد الناس عن البدع وأهلها، ولذلك، لا نجد منهم من ينسب الى فرقة من الفرق الضالة، ولا إلى من يميل عن خلاف السنة. وأكثر من ذكر منهم علماء، وفقهاء، ومحدثون، وممن يؤخذ عنه الدين أصلا وفرعا. ومن لم يكن كذلك، فلابد أن يكون فقيها في دينه بمقدار كفايته) اهـ.

ومن ذلك، تخصيصهم أنفسهم للقيام بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فهو مما اشتهر عنهم في كل عصر، حسبما يستحق الوقت، وكثيرا ما كانوا يغشون الأمراء والملوك، في سرادقهم الى الحث على ذلك، ويشهد لهذا ما يوجد على طريق الإستطراد في

الكثير من كتب التاريخ. ذكر ابو عمر محمد بن يوسف الكندي، المتوفي سنة ثلثمائة وخمسين هجرية في كتاب [ولاة مصر] في حوادث سنة مائتين: أنه ظهر بالأسكندرية، طائفة يسمون بالصوفية يأمرون بالمعروف في زعمهم، ويعارضون السلطان في أمره، فترأس عليهم رجل منهم، يقال له عبد الرحمن الصوفي اهـ.

ومعنى معارضتهم للسلطان، إلزامه بتنفيذ الأحكام الشرعية. ويشهد لهذا، ما ذكره في (مروج الذهب) للمسعودي فيما يتعلق بيحي ابن أكتم، أن أمير المؤمنين المأمون، كان في يوم جالسا إذ دخل عليه علي ابن الصالح الحاجب، فقال: يا امير المؤمنين، رجل واقف بالباب، عليه ثياب بيض غلاظ مشمرة، يطلب الدخول للمناظرة، فعلمت أنه بعض الصوفية، فأردت أن أشير أن لا يؤذن له، ولكن تحدث مع الأمير وخلّى سبيله، فأمر عليا ابن الصالح أن يوجه من يتبعه حتى يعلم أين قصد، ففعل ذلك، ثم رجع وقال: يا أمير المؤمنين، وجهت من يتبع الرجل، فمضي الى مسجد فيه خمسة عشر رجلا في هيأته وزيه، فقالوا لقيت الرجل، (يعنون الأمير) قال نعم، قالوا فما قال لك؟ قال: ما قال لي إلا خيرا، ذكر أنه ضابط أمور المسلمين، حتى تأمن سبلهم، ويقوم بالحج، ويجاهد في سبيل الله، ويأخذ للمظلوم من الظالم، ولا تتعطل الأحكام، فإذا رضي المسلمون برجل (يعني غيره) واجتمعوا، عليه سلم إليه الأمر، وصار من رعيته، فقالوا: ما نرى بهذا الأمر بأسا. وافترقوا.

فتأمل يرحمك الله، كيف كانوا يغشون الملوك لتذكيرهم، بدون

ما تمنعهم سطوة السلطان من قول الحق، ويشبه هذا ما ذكره الكندي أيضا: أن الصوفية أتوا القاضي عيسى بن المنكدر، وقالوا أن أمير المؤمنين المأمون، قد ولى أبا إسحاق بن الرشيد مصر، واننا نخافه، ونخشى أن يؤيد أهل العدوان، فيكونوا عونا لأهل الشر، فاكتب لنا كتابا الى المأمون، بأنك لا ترضى بولايته، فاقتنع ابن المنكدر برأيهم وفعل ما طلبوا إليه، وبلغ الكتاب المأمون فأحضر أبا إسحاق فقال: ما الذي فعلت في أهل مصر؟ اهـ

وذكر أيضا ان عيسى بن المنكدر كان يقرأ، وكانت طائفة قد أحاطت به (يعني من الصوفية) يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فلما ولي القضاء، كانت تأتيه وهو في مجلس حكمه، فتقول أيها القاضي: ذهب الإسلام، أفعل كَيْتَ وكَيْتَ، فيترك مجلس الحكم ويمضي معهم. فكلمه إخوانه في ذلك، مثل ابن عبد الله الحاكم وغيره، فقال لا بد من القيام لله عز وجل بحقوقه. اهـ

هذا بعض مما كانوا يعرفون به رضوان الله عليهم.

قلت على أن التصوف، هو الذي يبعثهم على التلبس بخصال الدين الحميدة ظاهرا وباطنا.

ومن أجل هذا عرفه في جمع الجوامع، في فن الأصول بكونه مصفيا للقلوب. وفيه أيضا عن الغزالي رضي الله عنه، أنه تجريد القلب مما سوى الله واحتقاره.

وهنا قال الجلال المحلي، شارح (جمع الجوامع)، وهو يعني علم التصوف، كما قال الغزالي وقال في حاشية البناني على جمع

الجوامع أيضا قوله: (المصفي للقلوب) فيه إشارة الى وجه تسمية الصوفية « صوفية »، فقد قيل سموا بها لصفاء قلوبهم، ونقاء آثارهم، وقيل لأنهم في الصف الأول بين يدى الله عز وجل، لقرب أوصافهم من اوصاف أهل الصفة. إلخ

وقال ابن صدر الدين: التصوف هو علم يعرف به كيفية ترقي أهل الكمال من النوع الإنساني في مدارج سعادتهم، والأمور العارضة لهم في درجاتهم بقدر الطاقة البشرية.

وذكر العلامة الشيخ محمد بن يوسف المعروف بالكافي، في كتابه «النور المبين على المرشد المعين»، ما نصه بعد كلام من علم هاته الامور التي سيذكرها الناظم، وعمل بمقتضاها، حصل له علم يقال لصاحبه عارف بالله، المشار إليه في الخبر: **«من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم»** فمن هذا الآثر، أخذ الفرق بين الشريعة والطريقة والحقيقة. فالشريعة هي التي شرعها الله على لسان نبيه ﷺ والطريقة هي العمل بالشريعة، والحقيقة ثمرة الطريقة، من فهم حقائق الأشياء، والإطلاع على بعض المغيبات، التي لا كسب للشخص فيها الى أنْ قال: إن الطريقة عند السادات الصوفية هي العمل بشريعة خير البرية، وظهر أيضا أنه عمل بعلم، أو تقول أنها علم وعمل، وقد تحصل الثمرة وهي الحقيقة، وقد لا تحصل لأن تلك هبة من الله، يمنحها من يشاء برحمته. وسلك هذا السبيل الصحابة والتابعون إلا من شذ. اهـ وياله من سبيل لا أحرمنا الله من سلوكه.

قال العلامة ابن حمدون، المعروف بابن الحاج في حاشيته على المرشد المعين.

صفا منهل الصوفي عن علل الهوى
فما شاب ذاك الورد من نفسه حظ
ووفى بعد الحب إذ لم يكن له
الى غير من يهوى إلتفات ولا لحظ
محت آية الظلماء شمس نهاره
وقد ذهبت منه الإشارة واللفظ

وكان رحمه الله، علق هاته الأبيات على قول ابن عاشر عند ذكره لما ينتهي إليه الصوفي:

يصير عند ذاك عارفا به ☆ حرا وغيره خلا من قلبه
فحبه الاله وأصطفاه ☆ لحضرة القدوس واجتباه

وقال العلامة سيدي أحمد الدرديري شارح المختصر في كتابه [تحفة الإخوان] بعد أن ذكر جملة من آداب الصوفية رضي الله عنهم، قال: هذا حاصل طريق القوم وهو طريق مقوم، كيف ومقصودهم تحصيل تقوى الله، لا يدركها غيرهم، كما مهدناه فيما تقدم، والتلبس بالآداب المحمدية، فلا عبرة باعتراض المعترضين عليهم مما هو من شأنهم، (**ولا يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور**). إلخ

فتأمل قول الفقهاء في الموضوع يرحمك الله، فلا واحد منهم، إلا وتجده ينزل التصوف في أعلى منازله الذي هو بها أحرى. وهكذا لو تأملت أقوال حكماء الأمة، لاستخرجت من ذلك ما يعطيك حقيقة التصوف، كيف كانت تتمثل في نظرهم، وأنت تعلم ما هو شأن الفيلسوف الحكيم، لايرسل نظريته على غير يقين، يعتمده في الغالب

هذا في العقليات، وكذلك في الشرعيات، لا يسمح له ضميره ان يثبت مسألة بدون تحقيق، أو لمجرد تقليد على ما يظهر.

ونظرهم في التصوف، يتضح مما ذكره القاضي ابن رشد في كتابه، [مناهج الأدلة في عقائد الملة] عند تمحيصه لطرق الدلالة على الله فقال: الصوفية طرقهم في النظر ليست طريقا نظرية، أعني مركبة من مقدمات وأَقِيسَة، وإنما يزعمون أن المعرفة بالله وبغيره من الموجودات، شيء يلقي في النفس عند تجردها من العوارض الشهوانية، وإقبالها بالفكرة على المطلوب، ويحتجون لتصحيح هذا، بظواهر من الشرع كثيرة، مثل قوله تعالى: (**واتقوا الله ويعلمكم الله**) ومثل قوله تعالى: (**والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا**) ومثل قوله تعالى: (**إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا**)، وأشباه ذلك كثيرة يظن أنها معاضده لهذا المعنى، إلى أن قال: ومن هذه الجهة دعى الشرع الى هذه الطريقة وحث عليها يعني طريقة العمل. اهـ

ومن ذلك أيضا، ما ذكره العلامة شمس الدين محمد بن إبراهيم الأنصاري في كتابه [إرشاد القاصد الى أسنى المقاصد][1]، بعد ما ذكر عدد العلوم، فتكلم في علم الهيأة على القدر المشترك بين المسلمين وغيرهم قال: ومن المجتهدين في تصفية النفس بالرياضة وهؤلاء هم النساك، وأكثرهم يصل إلى أمور ذوقية يكشفها له العيان، تجل عن أن توصف باللسان، فلا يقوم عليها دليل،

---

1) وهذا الكتاب كان تكفل بتخريجه من مبيضته وتصحيحه والوقوف على طبعه الشيخ طاهر الجزائري رحمه الله.

إلا الوجدان، ونساك ملتنا هم الصوفية، ولهم آداب شرعية واصطلاحات يشتمل عليها كتاب «عوارف المعارف». اهـ

قلت، وممن كان بسط الكلام في معاني الطريق الموصلة الى الله، الإمام أبو منصور الماتريدي[1] ومما قاله: أن هذا الطريق، ليست ذات طول وعرض مثل المساحة التي تسلكها النفوس وتقطعها بالأقدار، وبحساب قوة النفس وضعفها، بل هو طريق روحاني، تسلكه القلوب على حسب العقائد والبصائر إلخ. نقله عنه الشيخ محمود الكردي في كتابه «تنوير القلوب في معرفة علام الغيوب» اهـ. وهكذا ما من إمام من أئمة الدين، أو عالم من علماء المسلمين، إلا وتجد له العناية التامة بطريق القوم، إما ذوقا وتحقيقا، وإما إيمانا وتصديقا، إلا من عود نفسه التقصير واستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، وشأن المؤمن عالي الهمة أن تتطلع نفسه بالطبيعة الى ما وراء هذه الظروف المحيطة، لما ربما يعثر على شريدة ذوقية ونفحة قدسية فتكون بيده نبراسا يستضيء به[2] قال تعالى: **(والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا)** على ان المؤمن لا ينفك متشوفا إلى من ينهض به الى الله.

---

1) هو أحد المجتهدين في عقائد الإيمان، قرين أبي الحسن الأشعري في الإستدلال على طريق أهل السنة والجماعة. اهـ

2) وعلى الأقل يتشوف لما كمن في غريزته، أو احتجب عنه من فطرته التي كان بها إنسانا وشأن الإنسان أن يربأ بنفسه عما يربطه بخسيس الحيوان من نحو الخلود الى الأرض.

قال في كتاب (مواهب الصمد في حل ألفاظ الزبد) للشيخ أحمد الحجازي الفشاني، على متن الزبد، للشيخ أحمد ابن رسلان الشافعي، تحت عنوان (خاتمة في علم التصوف):

من نفسه شريفة أبيّهْ * يربأ عن أموره الدنية
ولم يزل يجنح للمعالي * يسهر في طلبها الليالي
ومن يكون عارفا بربه * تصور إبتعاده من قربه
فخاف وارتجى وكان صاغيا * فيما يكون أمرا وناهيا
فكل ما يأمره يرتكب * وما نهي عن فعله يجتنب
فصار محبوبا لخالق البشر * له به سمع وبطش وبصر
وكان لله وليا إن طلب * أعطاه ثم زاده مما أحب
وقاصر الهمة لا يبالي * بجهل فوق الجهل كالجهال

ثم راجع أيضا إن شئت ما ذكره الشيخ العطار، في حاشيته على «جمع الجوامع» تدرك كيف كان آدابهم في سلوك سبيل الإنصاف مع رجال التصوف، قال رحمه الله: ثم هو، أي علم التصوف قسمان. قسم يرجع الى تهذيب الأخلاق والتأدب بجميل الآداب، كقوت القلوب، وإحياء الغزالي، ومؤلفات سيدي عبد الوهاب الشعراني وغيره، فهذا واضح جلي، يدركه كل من له أدنى ممارسة للعلوم. وقسم مرجع أربابه فيه الى المكاشفات والأذواق، وما يقع لهم من التجليات، كمؤلفات سيدي الشيخ محي الدين بن عربي والجيلي وغيرهما، ممن نحا نحوهما، فهذا من الغوامض التي لا يفهمها إلا من ذاق مذاقهم، وقد لا تفي عبارتهم بشرح المعاني التي أرادوها، بل ربما صدمت بحسب ظواهرها الدلائل

العقلية. فالأولى، عدم الخوض فيها، ويسلم لأربابها حالهم. ثم قال بعد الكلام وفي النصيحة الزروقية ما نصه: وأما القراء فيسلم لهم في كل ما لا يقتضي العلم إنكاره، وما وجب إنكاره انكر عليهم مع اعتقاد كمالهم اهـ.

قلت، ونظير هاته التفصيلات ما جاء في كتاب «سعود المطالع» للشيخ سيدي عبد الهادي بن رضوان، قال بعد كلام ما يتعلق بالصوفية وأحوالهم، والحق أن الكلام معهم فيه تفصيل. فإن كلامهم في أربعة مواضع: أحدها الكلام على المجاهدات وما يحصل من الأذواق، ومحاسبة النفس وغير ذلك مما سلف. وثانيها الكلام في الكشف والحقيقة المدركة من عالم الغيب، كالصفات الربانية والملائكة، وحقائق كل موجود غائب أو شاهد. وثالثها التصرفات في العوالم بأنواع الكرامات. ورابعها ألفاظ موهمة الظاهر صدرت من الكثير من أئمة القوم، يعبرون عنها في إصطلاحهم بالشطحات. فأما الكلام في المجاهدات، وما يحصل من الأذواق، فأمره لا مدفع فيه لأحد، وأذواقهم فيه حجة، والتحقق بها هو عين السعادة. وأما الكلام في كرامات القوم وأخبارهم بالمغيبات، فصحيح غير منكر، وإنْ مال بعض العلماء إلى إنكاره، وما أحتج به أبو إسحاق الأسفراييني على إنكار كراماتهم لالتباسها بالمعجزات، فقد فرق المحققون بينهما بالتحدي، ثم ان وقوعها على وفق دعوى الكاذب غير مقدور، لأن دلالة المعجزة على الصدق عقلية، فإن صفة نفسها التصديق، فلو وقعت مع الكاذب لتبدلت صفة نفسها، وهو محال. هذا مع أن

الوجود شاهد بوقوع الكثير منها. فإنكارها نوع مكابرة، وقد وقع للصحابة وأكابر السلف كثير من ذلك. وأما الكلام في الكشف وإعطاء حقائق العلويات فأكثر كلامهم فيه نوع من المتشابه لما انه وجداني عندهم وفاقد الوجدان بمعزل عن أذواقهم، واللغات لا تعطي دلالة على مرامهم لما سبق، فينبغي أن لا يتعرض لكلامهم في ذلك، ونتركه فيما تركناه من المتشابه، ومن رزقه الله فهم شيء من هذه الكلمات، على الوجه الموافق لظاهر الشريعة فأكرم بها سعادة.

وأما الألفاظ الموهمة التي يعبرون عنها بالشطحات، ويؤاخذهم بها أهل الشرع، فالإنصاف في شأن القوم إعتقاد أنهم على غيبة عن الحس، والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصدونه، وصاحب الغيب غير مخاطب، والمجبور معذور، فمن علم منهم فضله واقتداره، حمل كلامه على القصد الجميل، كما وقع لأبي يزيد إلى أن قال: قال العلامة ابن حجر في تحفته من كتاب «الردة»: ولا أثر لسبق اللسان وحكاية كفر أو شطح ولي في غيبةٍ أو تأويله بما هو مصطلح عليه بينهم، وإن جهله غيرهم، إذ اللفظ المصطلح عليه حقيقة عند أهله، فلا يعترض عليهم بمخالفة اصطلاح غيرهم، كما حققه أئمة الكلام وغيرهم. ومن ثم زل كثير في التهوّر على محققي الصوفية بما هم بريئون منه. اهـ

فتأمل يرحمك الله هاته الجمل الصادرة من هذا الإمام، ثم تأمل ما ذكره الامام السنوسي، صاحب العقائد في كتابه «نصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير» كيف كان يستنكر أحوال من

من يبسط لسانه في الصوفية من غير علم. قال بعد كلام: إني رأيت الهمم قاصرة عن الله، وعن طريق الوصول إليه متقاصرة. ورأيت شعبا وقواطع عن الله تعالى، وأكثرها الذين يدعون علم الظاهر إذ هم في حجاب عن الله، أخذوا بظاهر الشرع وتركوا ما كانت عليه بواطن أصحاب رسول الله ﷺ واتخذوا الظاهر عمادا، والإنكار في الباطن وسادا، والتمشدق والتمخرق مهادا، ورفضوا الحقيقة وأسبابها، وحجبوا بالغفلة وفتحوا أبوابها، إذا ذكروا بالحق آنفوا، وإذا قدروا على من ذاكرهم عنفوا، يتكلمون بالشقاشق، ويستظهرون بالبوارق، فيغتر بهم الجاهل، فيمتثل لهم كل مفتون ذاهل. وهكذا، كان رحمه الله، يكرر التحذير تلو التحذير من أن يبسط الإنسان لسانه فيما ليس له به علم من أحوال الصوفية، لأن مراميهم أوسع دائرة من دوائر غيرهم.

قال مجد الدين الفيروزابادي، صاحب القاموس المحيط في اللغة، لا يجوز لأحد أن ينكر على القوم «يعني الصوفية» ببادي الرأي لعلو مرتبتهم في الفهم والكشف. وقال ولم يبلغنا عن أحدهم أنه أمر بشيء يهدم الدين، ولا نهى احداً عن الوضوء، ولا عن الصلاة ولا عن غيرهما من فروض الاسلام ومستحباته، وإنما يتكلمون بكلام يدق عن الأفهام، إلى أن قال: ولكن ما كل أحد يتربص إذا سمع كلاما لم يفهمه، بل يبادر الى الإنكار على صاحبه، وخلق الإنسان عجولا. نقله في «النصرة النبوية» وقال شيخ الجماعة أبو محمد عبد القادر بن يوسف الفاسي رحمه الله، في نوازله، جوابا عن سؤال رفع له في كلمات مشتبهة تصدر من

السادات المتصوفة، يستعصى فـهمها على العموم، فقال بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله الجواب: والله الموافق للصواب، أما أمثال هاته العبارات فمعهودة من كلام أهل الصدق مع الله، الذين طهرت أسرارهم، وتكاملت أنوارهم، وحرست بواطنهم من الأغيار، فلم تتشبث بها صور الآثار، وكانت محلا ومظهرا لتنزلات الأقدار، ومعلوم عندهم ما يريدون بتلك العبارات ولكل أهل فن إصطلاحات تدور بينهم فيها ألفاظ وكلمات يعرفها أهلها ويجهلها غيرهم ممن لا خبرة له بها إلى ما جلبه من الأدلة في الموضوع، والشاهد عندنا في التنصيص على شديد إحترازهم وسلامة طويتهم نحو السادات الصوفية رضي الله عنهم، وما كان ذلك منهم، إلا لتوفر معلوماتهم في الكتاب والسنة وعلمهم بأن للقوم سندا يتصل بصاحب الشرع ﷺ.

قال العلامة الشيخ محمد بِيرَمْ الخامس مفتي الديار التونسية رحمه الله: إن هذا الطريق «يعني الصوفية» له سند متصل بصاحب الشرع عليه الصلاة والسلام، فهذا لا شك أنه من أصول قواعد ديننا المتين، وقد نص العلماء في دواوين علم الحديث وعلم الأصول، ان السند من خصائص هاته الأمة الشريفة المباركة، والأصل في ذلك ما قدمناه من ان التشريع خاص بالرسول ﷺ إلى آخر ما استطرده من كون الطعن في السند المتواتر هو طعن في الدين اهـ. نقله في «النصرة النبوية».

وقال العلامة الشيخ محمد عليش رحمه الله في فتاويه بعد تنصيصه على وجوب إحترام مذهب التصوف ورجاله قال: قال

شيخ مشايخنا بعد كلام مراد اهل الطريقة، مجاهدة النفس، وإلزامها بالشريعة والسنة المحمدية في الباطن والظاهر. ولذلك لما سئل الإمام مالك عن شيء من علم الباطن قال للسائل: أعمل بعلم الظاهر يورثك الله علم الباطن، لكن مستند القوم أن جهاد النفس هو الجهاد الأكبر. اهـ

ونظير هذا، ما ذكره الشيخ مصطفى حبش في كتابه النصرة عن الإمام الشبرخيتي، وهو من محققي المالكية قال بعد كلام: إن هؤلاء السادات «يعني الصوفية» ذكرهم مشهور يحضرهم فيه العلماء والفقهاء قرنا بعد قرن، من قديم الزمان الى الآن فهم على حال محمود، وطريق بالخير معهود، ومن آذاهم فهو مستحق لما في الحديث القدسي من الوعيد **(من آذى لي وليا فقد آذنته بالحرب)** ومن لم يكن منهم وليا فهو في حمى الأولياء بحبه لهم ومشيه على طريقتهم.

ونظير هذا أيضا ما أثبته العلامة بن يوسف التجيبي، المعروف بابن البنا في نظمه المسمي «بالمباحث الأصلية» حيث يقول:

فقادة الصوفي أهل الصفه * في زمن الرسول فاعلم وصفه
وهم ضيوف الله والإسلام * وجلساء سيد الأنام
كانوا على التجريد عاملين * وعن سوى الرحمن معرضين
تخلقوا بخلق النبي * يدعون بالغداة والعشي
قد فهموا مقتضيات الشرع * فصيروا الفرق لعين الجمع
قد خرجوا لله عما اكتسبوا * فكل صوفي إليهم ينسب
إذاً فشأن القوم ليس محدثا * بل كان أحوى فوجدناه غثا

فاسلك طريق القوم تلق يمنه * إذ الكتـــاب قيـــده والسنـــه
حجـــة مـــن يرجح الصوفيـــه * على ســـواهم حجـــة قويـــه
هم أتبـــع النـــاس لخير النـــاس * من ســـائر الأنـــام والأنـــاس

قال الإمام الشعراني في طبقاته الكبرى، لا يشرف على ذوق أن علم التصوف تفرع من عين الشريعة، إلا من تبحر في علم الشريعة حتى بلغ إلى الغاية، ثم أن العبد إذا دخل طريق القوم وتبحر فيها، أعطاه الله هناك قوة الإستنباط، نظير الأحكام الظاهرة على حد سواء، فيستنبط في الطريق واجبات ومندوبات وآداب ومحرمات ومكروهات؛ وخلاف الأولى نظير ما فعله المجتهدون، وليس إيجاب مجتهد باجتهاده شيئا لم تصرح الشريعة بوجوبه. أولى من إيجاب ولي الله تعالى حكما في الطريق لم تصرح الشريعة بوجوبه، كما صرح بذلك اليافعي وغيره وإيضاح ذلك أنهم كلهم عدول في الشرع، أختارهم الله عز وجل لدينه، فمن دقق النظر، عَلِمَ أنه لا يخرج شيء من علوم أهل الله تعالى عن الشريعة. وكيف تخرج علومهم عن الشريعة، والشريعة هي وصلتهم إلى الله عز وجل في كل لحظة. ولكن أصل استغراب من لا له إلمام بأهل الطريق، أن علم التصوف من عين الشريعة كونه لم يتبحر في علم الشريعة. ولذا قال الجنيد رحمه الله تعالى: علمنا هذا مشيد بالكتاب والسنة، ردا على من توهم خروجه عنهما في ذلك الزمان أو غيره. وقد أجمع القوم على أنه لا يصح للتصدر في طريق الله عز وجل، الا من تبحر في علم الشريعة، وعلم منطوقها ومفهومها وخاصها وعامها وناسخها

ومنسوخها، وتبحر في لغة العرب، حتى عرف مجازاتها وإستعاراتها وغير ذلك، فكل صوفي فقيه ولا عكس. وبالجملة فما أنكر أحوال الصوفية إلا من جهلها. اهـ

قلت: ومن توفرت فيه الشروط التي ذكرها حضرة الكاتب أو البعض منها، يستطيع إسترجاع ما قد يشتبه أمره من كلام المتصوفة إلى نصوص الشريعة. وإلى ذلك يشير الإمام المقري رضي الله عنه بقوله:

وموهم المحذور من كلام * قوم من الصوفية الأعلام
جريا على عرفهم المخصوص * يرجع بالتأويل للمنصوص

ولهذا قال الشيخ بدر الدين الزركشي: لا تجوز فتوى شخص في القوم، إلا بعد تحقيقه لإصطلاحاتهم ومعرفته بحقائق ألفاظهم، كما لا تسمع فتوى الأصولي والنحوي في الفقه تقليدا له بعد غوصه في حقائق الكتاب والسنة، ومعرفته بأصول الفقه، لا لعدم إحاطته وإتقانه لذلك العلم، إذ علم النحو والأصول إنما هما آلة لتحقيق الفقه لا أنهما عينه، فإن فعلا فقد ضلا وأضلا، وكذلك من لا معرفة له باصطلاح القوم الخ. وكان إمام الحرمين يقول: لو قيل لنا فصلوا لنا ما يقضي الكفر ويؤدي إلى التضليل من عبارات القوم، لقلنا هذا طمع في غير مطمع، فإنه أمر بعيد المدرك، وعر المسلك يمد من تيار بحور التوحيد، ومن لم يحط علما بنهاية الحقائق، لم يحصل من الفكر إلا ما يضره، فيكون كالباحث على حتفه بظلفه، أو كمتلقي النار عن نفسه بأنفه، إذ ربما أراد تكفير غيره فيقع سهمه في نحره. اهـ

وفي الجيش الكفيل عن النووي أنه قال: يحرم على كل عاقل أن يسيء ظنه بأولياء الله تعالى، بل يجب تأويل أقوالهم وأفعالهم ما لم يلحق بهم، أو يشرب من مشاربهم، وقال في فرائد الفوائد. قال ابن حجر: والصواب للمعترض ان يقول في عبارته هذه العبارات تحتمل وجوها ويثبتها، ثم يقول إن أراد كذا فهو كذا، ولا يقول من أول وهلة هذا كفر وهذا جهل، وخروج عن دائرة النصيحة التي يزعم أنه أرادها. ثم أنه لا يجوز الإنكار عليهم، إلا بعد معرفة مدلول كلامهم ثم معرفة إصطلاحهم، فإن اللفظ المصطلح عليه حقيقة عند أهله فيما أصطلحوا عليه، ثم تطبيق ذلك الإصطلاح على ذلك المدلول، وننظر هل يطابق أم لا، وبحمد الله، المنكرون عليهم كلهم جاهلون بذلك، إذ ليس أحد منهم أتقن علم المكاشفة ولا شم لها رائحة، ولا أحد منهم ملك زمامه حتى أحاط باصطلاحهم. اهـ

وفي رسالة الخروبية: يجب على الفقيه أن يرفق بنفسه، وأن يعلم مقامه في الدين، فلا يمد يده الفارغة إلى ما فوق طوره من المقامات العرفانية، والأحوال الربانية، حتى يذوق مذاقات رجال الغيب المخلصين الأخيار. اهـ

قال العلامة المسنوي، وقد تكلم ابو عبد الله القرشي بما أبهر عقول الحاضرين، فقال بعضهم: من أين لك هذا؟ يا أبا عبد الله فقال لهم: من الجهة التي أستدبرتموها. ذكره ابن خلكان.

فتأمل يرحمك الله ما كان ينقل عن علماء السنة خلفا عن سلف على إختلاف مراتبهم، ثم انظر كيف تظافرت نقولهم.

واتحدت على وجوب إحترام مذهب التصوف ورجاله، على أني لا أنكر أن يوجد بين علماء الأمة، من كان شديد الوطأة على المتصوفة، كابن الحاج صاحب المدخل، وابن عربي المعافري، وشيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية وتلميذه بن القيم، لكن شدتهم لم تكن تتجاوز حد الإنتقاد على معاصرهم، من بعض الأفراد الذين لم تتوفر أهليتهم في نظرهم. ويشهد لذلك ما ذكره ابن الحاج في الجزء الثاني من مدخله، بعد ما انتقد ما ظهر له انتقاده من أعمال بعض المتصوفة قال: ولا يظن ظان، أن ما تقدم ذكره فيه إنكار لأخذ العهد من أهله لأهله بشرطه المعتبر عندهم، إذ أنه درج عليه السلف الصالح نفعنا الله بهم. ولا ننكر الإنتماء الى المشايخ بشروطه. اهـ

فتأمل قوله يرحمك الله، إذ عليه درج السلف الصالح، ثم ذكر في الجزء نفسه ما هو أبلغ من هذا، فقال في ترجمة فصل التصوف ما لفظه: أعلم أن طريق القوم نظيفة وكل شيء يدنس النظيف. اهـ

ومن ذلك ما ذكره ابن عربي المعافري في كتابه «سراج المريدين»: ولقد رأيت في هاته الطائفة (يعني الصوفية)، أعيانا أجلة علما وخشية، وأولياء ذوي كرامات كثيرة، يفتخر بها على سائر الملل، وإن كان منهم الغث والسمين، والصالح والطالح. اهـ نقله في «حجة المنذرين». وقد كان ينتمي رحمه الله إلى عدة مشايخ من رجال التصوف، فمنهم الإمام الغزالي الطوسي، وابو منصور الشيرازي، وكان يستعظم أحوالهم، ويعتبر أقوالهم، ومن

ذلك واقعته مع أبي حامد الغزالي رضي الله عنه قال: لقيت أبا حامد وهو يطوف وعليه مرقعة، فقلت يا شيخ: العلم والتدريس أولى لك من هذا، إذ بك يقتدى، وبحكمك إلى معالم المعارف يهتدى. فقال: هيهات، لما طلع قمر السعادة في فلك الإرادة، أشرقت شموس الوصول على مصابيح الأصول، فتبين الحق لأرباب الألباب وذوي البصائر، وكل لما طبع عليه راجع وصائر، وأنشد:

تركت هوى ليلى ولبنى بمعزل
وصرت إلى مصحوب أول منزل
ونادتني الأكوان مهلا فهذه
منازل من تهوى رويدك فأنزل
تعرست في دار الندى بعزيمة
قلوب ذوي التعريف عنها بمعزل
غزلت لهم غزلا رقيقا فلم أجد
لغزلي نساجا فكسرت مغزلي

وهكذا كان يستفيد، (أعني ابن عربي) من شيخه أبي منصور قال: سألت شيخنا أبا منصور الشيرازي الصوفي عن قوله تعالى: **(إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا)** ما بينوا؟ قال: أظهروا أفعالهم للناس بالصلاح والطاعة. والملخص من هذا، أنه ما كان يرى رجال التصوف بالعين التي رأيتموهم بها أنتم -أيها الأخ- وهذا شأن علماء الملة فيما يرجع للتصوف وأهله. جزاهم الله عن المسلمين خيرا. أما ابن قيم الجوزية رحمه الله، فقد ينقل عنه أكثر بكثير مما ينقل عن غيره من جهة ما يرجع لإحترام مذهب

التصوف ورجاله. ولو لم يوجد عنه إلا هاته الفقرة الآتية لكانت كافية في الموضوع. قال في كتابه «شرح منازل السائرين»: الصوفية ثلاثة أقسام؛ صوفية الأرزاق، وصوفية الرسوم، وصوفية الحقائق، وبدع الفريقين المقلدين، يعرفها كل من له إلمام بالسنة والفقه. وإنما الصوفية صوفية الحقائق، الذين خضعت لهم رؤوس الفقهاء والمتكلمين، فهم في الحقيقة علماء حكماء. اهـ

فتأمل يرحمك الله، فهم في الحقيقة علماء حكماء، خضعت لهم رؤوس الفقهاء والمتكلمين، أليست هي قولة شافية، وصراحة كافية في إثبات شرف القوم على غيرهم من الفقهاء، خصوصا وقد قالها ابن القيم الذي لا يفوتكم ما له من حدة الإنتقاد، والذي ترجون أن يكون لكم أكبر صاعقة على المتصوفة، لولا أن النتيجة جاءت عن خلاف ما في الآمال، وأنه يجمل بنا الإقتصار على ما قدمناه من النقل عن هذا الإمام، لولا ما في علمي من أنكم تتشوفون كما يتشوف غيركم إلى ما ينقل عنه بزيادة بسط في الموضوع، ولهذا ظهر لي أن أقول لكم إن حضرة ابن القيم، فزيادة على كونه يحترم مذهب القوم ويجلّه، فإنه خاض في معانيه، وتفنن في معارفه، وشارك في غوامضه.(1) ومن أراد

---

1) قال العلامة خير الدين الآلوسي في ترجمته لإبن القيم أنه لم يشهد مثله في عبادته وعلمه بالقرآن والحديث وحقائق الإيمان، وليس هو بالمعصوم، ولكن لم أر في معناه مثله وقد امتحن وأوذي مرات وحبس مع شيخه، شيخ الإسلام تقي الدين في المرة الآخيرة بالقلعة منفردا عنه ولم يفرج عنه إلا بعد موت الشيخ، وكان في مدة حبسه مشتغلا بتلاوة القرآن والتدبر والتفكر، ففتح عليه في ذلك خيرا كثيرا وحصل له جانب عظيم من الأذواق والمواجيد الصحيحة وتسلق بسبب ذلك على الكلام في علوم أهل المعارف والخوض في غوامضهم وتصانيفه ممتلئة بذلك . الخ

الوقوف على ذلك بنفسه، فما عليه إلا أن يتصفح شرحه المسمى «بمدارج السالكين على منازل السائرين» للإمام الهروي الحنبلي في غوامض التصوف، فإنه أودع فيه من الحقائق الإختصاصية والمعارف اللدنية، ما يثبت له حق المشاركة في الفن، ومن ذلك ما ذكره في معنى الفناء عند القوم رضي الله عنهم. قال: ليس مرادهم (يعني الصوفية) فناء وجود ما سوى الله في الخارج، بل فناؤه عن شهودهم وحسهم، فحقيقة غيبة أحدهم عن سوى مشهوده، بل غيبته أيضا عن شهوده ونفسه، لأنه يغيب بمعبوده عن عبادته، وبمذكوره عن ذكره، وبموجوده عن وجوده، وبمحبوبه عن حبه، وبمشهوده عن شهوده. وقد يسمى حال، مثل هذا سكرا واصطلاما ومحوا وجمعا؛ وقد يفرقون بين معاني هذه الأسماء، وقد يغلب شهود القلب بمحبوبه ومذكوره حتى يغيب به ويفنى به، فيظن أنه أتحد به وامتزج، بل يظن أنه نفسه. كما يحكى أن رجلا ألقى نفسه بالماء فألقى المحب نفسه وراءه. فقال له: ما الذي أوقعك في الماء؟ فقال: غبت بك عني فظننت أنك اني. وهذا إذا عاد إليه عقله، يعلم أنه كان غالطا في ذلك، وان الحقائق مشيدة في ذاتها، فالرب رب والعبد عبد، والخالق بائن عن المخلوقات، ليس في مخلوقاته شيء من ذاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته، ولكن في حال السكر والمحو والاصطلام والفناء قد يغيب عن هذا التمييز، فهذا الحال قد يقول صاحبه ما يحكى عن ابي يزيد انه قال: (سبحاني) أو (ما في الجبة إلا الله) ونحو ذلك. الخ

قلت، ولا شك أن هاته المخارج، لا تتسع لها، إلا صدور من تشبعت قلوبهم من حسن الظن برجال التصوف، بعد ما سبروا حسن مقاصدهم، وسلامة عقائدهم، والذي نراه أبلغ في التماس المخارج مما سبق من حضرة ابن القيم رحمه الله، هو تأويله الابيات الآتية للإمام الهروي، في معنى التوحيد عنده وفيه يقول :

ما وحد الله من واحد * إذ كل من وحده جاحد
توحيد من ينطق عن نعته * عارية أبطلها الواحد
توحيده اياه توحيده * ونعت من ينعته لاحد

فقال في معنى هاته الأبيات : أنه ما وحد الله عز وجل واحد، توحيده الخاص، الذي تفنى فيه الرسوم، ويضمحل فيه كل حادث، ويتلاشى فيه كل مكون، فإنه لا يتصور منه التوحيد، إلا ببقاء الرسم وهو الموحد، وتوحيده القائم به، فإذا وحده شهد فعله الحادث وإسمه الحادث، وذلك جحود لحقيقة التوحيد، الذي تفني فيه الرسوم وتتلاشى فيه الأكوان. فلذلك قال : إذ كل من وحده جاحد، هذا أحسن ما يحمل عليه كلامه. اهـ وهكذا كان شأنه وشأن من هو على شاكلته فيما يصدر عن القوم من الكلمات التي يستعصي فهمها على الأكثر من ذوي الإدراكات المستعدة.

ولهذا قال رحمه الله في الجزء الثاني من (المنازل) صحيفة [65] وهذه الشطحات (يعني الصادرة من الصوفية) أوجبت فتنة على طائفتين من الناس، إحداهما حجبت عن محاسن الطائفة ولطف نفوسهم وصدق معاملتهم فأهدروها لأجل هذه الشطحات، وأنكروها غاية الإنكار وأساؤا الظن بها مطلقا، وهذا عدوان

وإسراف، فلو كان من أخطأ أو غلط، ترك جملة وأهدرت محاسنه لفسدت العلوم والصناعات والحكم، وتعطلت معاملتها. والثانية حجبوا بما رأوه من محاسن القوم، وصفاء قلوبهم، وصحة عزائمهم، وحسن معاملتهم عن عيوب شطحاتهم ونقصانها، فسحبوا عليها ذيل المحاسن، وأجروا عليها حكم القبول والإنتصار، وهؤلاء مقتدون مفرطون. والطائفة الثالثة، وهم أهل العدل والإنصاف، وهم الذين أعطوا كل ذي حق حقه، وأنزلوا كل ذى منزلة منزلته، فلم يحكموا على الصحيح بحكم المعلول، ولا على المعلول السقيم بحكم الصحيح. اهـ

وما كان بودي أن نبعثك أيها الأخ، على مطالعة هاته النقول، ولا نبعث غيرك لولا ما فاجأتمونا به من نقولكم المتضمنة، كون الجنيد وعصابته كانوا أحط درجة من الخوارج في نظر كثير من الأئمة، وذلك هو الأمر الذي بعثنا على الإستغراب، ولربما يبعث الغير عن تصديقكم مهما كان خالي الذهن، مما ينقل عن الأئمة، على أن ابن القيم رحمه الله، ينقل عنه في الجنيد وعصابته، خلاف ما حكيتموه أنتم. قال في الجزء الثالث من (شرح المنازل) صحيفة [76]: رحمة الله على أبي القاسم الجنيد، ما أتبعه لسنة الرسول ﷺ وما أقفاه لطريقه وطريق أصحابه.

ولا شك أنكم تعتبرون هاته النقول عن ابن القيم من الغرابة بمكان، ولكن الأغرب من ذلك، أن الكثير من أبناء العصر، يعتقدون في الإمام ابن تيمية أنه على أبلغ ما يكون في تخطئة القوم وتسفيه أحكامهم، وهذا الزعم الفاسد هو الذي دفعهم إلى

المشي في الأرض مرحا، حتى إذا أوقفت أحدهم على ما صح من النقول عن الإمام المذكور، أو عثر هو بنفسه على شيء من ذلك، مما يخالف ظنه، وزعمه على خط مستقيم، رجع مبهوتا خجلا من سوء ظنه وفهمه، وكان حينئذ مضطرا لأحد أمرين إما الرجوع عما كان يعتقده، وإما ظنه، بأن النقل قد أختلف عن الامام المذكور. وهاك ما يدل على حسن ظن الامام المومى إليه في القوم رحمه الله، في الموضوع، وإني أرجوك أيها الأخ، أن تعطي هاته النقول حقها من الإهتمام، رجاء أن تكون هي الباعث على تحويل معتقداتكم في رجال التصوف، على أن الرجوع إلى الحق أولى من التمادي على الباطل. وهذا مقرر عند العقلاء بإجماع. أقول: إن ابن تيمية رحمه الله، ما كان من عادته أن يجر ذيل الإنكار على مذهب التصوف برمته، ولا عرف بنظير ما تظاهرتم به أنتم، ومن تقاسمكم في غلطكم، إنما ينتقد بعض كلمات على جماعة مخصوصين، ومع ذلك تجده يلتمس ما يستطاع من الإعذار لرجال التصوف، وهكذا تجده يحرص جهده في طريق حمل ما يصدر عن القوم، من الألفاظ المبهمة والمتشابهة على ما ينبغي حمله عليه، وإليكم ما كتبه في كتابه المسمى «بالجواب الصحيح في الرد على من بدل دين المسيح» بعد تمهيده لما يصدر عن الصوفية من الشطحات، أو الألفاظ الموهمة للحلول والإتحاد. قال رحمه الله: وهذا يكون إما لضعف العقل أو قوة سلطان المحبة والمعرفة، فيغيب الإنسان بمعبوده عن عبادته، وبمحبوبه عن محبته، وبمشهوده عن مشاهدته وبمعروفه

عن معرفته، فيفنى من لم يكن عن شهود العبد، لا أنه بنفسه يعدم ويبقى من لم يزل في شهوده. ومن هذا المقام ما يحكى عن أبي يزيد البسطامي من قوله (سبحاني) أو (ما في الجبة إلا الله). وفي هذا تذكر حكاية وهي أن شخصا كان يحب آخر فألقى المحبوب نفسه في الماء، فألقى المحب نفسه خلفه فقال له: أنا وقعت فلم وقعت أنت فقال: غبت بك عني فظننت أنك أني. فهذا العبد المحب لما استولى على قلبه سلطان المحبة، صار قلبه مستغرقا في محبوبه، لايشهد قلبه غير ما في قلبه، وغاب عن شهود نفسه وأفعاله، فظن أنه نفس المحبوب إلى أن قال: ومن تصور له هذا الأمر تبين له أن لفظ الحلول قد يعبر به عن معنى صحيح، وقد يعبر به عن معنى فاسد. إلخ

وقال في معنى الإتحاد الذي قد يؤخذ من كلام الصوفية بعد كلام وتمهيد، إنما العقلاء تتوجه قلوبهم إلى المقصود المراد دون الوسائل ويعبرون بعبارات تدل على ذلك، لظهور مرادهم كما يقول لمن يعرف علم غيره، ولمن يأمر بأمره، ويخبر بخبره، هذا فلان أي المطلوب هو مع هذا فيعبرون عن أحدهما بلفظ الآخر كما يقال: (عكرمة هو ابن عباس) (وابو يوسف هو أبو حنيفة)، وهذا هو الإتحاد الذي يشير له القوم. ومن هذا الباب ما يذكر عن المسيح عليه السلام أنه قال: أنا وأبي واحد، من رآني فقد رأى أبي. وقوله تعالى فيما حكاه عنه رسوله ﷺ **(عبدي مرضت فلم تعدني، عبدي جعت فلم تطعمني)** ويشبهه قوله تعالى: **(إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله)** فينبغي أن

يعرف هذا الكلام فإنه تنحل به إشكالات كثيرة. فإذا كان مثل هذا موجودا في كلام الله ورسوله ﷺ، وكلام المخلوقين في عامة الطوائف مع ظهور المعنى ومعرفة المتكلم والمخاطب، أنه ليس المراد أن ذات أحدهما اتحدت بذات الآخر بل أبلغ من ذلك، يطلق لفظ الحلول والإتحاد، ويراد به معنى صحيحا، وإطال النفس في ذلك كثيرا، وهذا شأنه في إلتماس المخارج للسادات الصوفية، وكثيرا ما يشاركهم في أذواقهم ومشاربهم العذبة. قال رحمه الله في الجزء الاول من رسالته الكبرى في صحيفة [51]: وأما حجة أهل الذوق والوجد والمكاشفة والمخاطبة، فإن أهل الحق من هؤلاء لهم إلهامات صحيحة مطابقة، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: **(قد كان في الأمم محدثون فإن يكن في الأمة أحد فعمر)** وكان عمر رضي الله عنه يقول: أقتربوا من أفواه المطيعين فإنها تجلى لهم أمور صادقة. الخ

قلت، ولا شك أنك ترى هذا عجبا من ابن تيمية، ولكن أعجب منه تقريره لمجالس الذكر المعهودة عن الصوفية واعتباره لها من السنة بمكان. ومن ذلك ما جاء في «المجلد الأول في فتاويه صحيفة [185]» قال: مسألة في رجل ينكر على أهل الذكر يقول لهم، هذا الذكر بدعة، وجهركم بالذكر بدعة، وهم يفتتحون بالقرآن ويختتمون، ثم يدعون للمسلمين الأحياء والأموات، ويجتمعون للتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والحوقلة، ويصلون على النبي ﷺ (الجواب) الإستماع لذكر الله

والإستماع لكتابه، والدعاء عمل صالح، وهو من أفضل القربات والعبادات في الأوقات، ففي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (**إن لله ملائكة سياحين في الأرض، فإذا مروا بقوم يذكرون الله، تنادوا: هلموا إلى حاجتكم**) وذكر الحديث وفيه وجدناهم يسبحونك ويحمدونك، وإطال النفس إلى أن قال: وما يحصل عند السماع والذكر المشروع، من وجل القلب ودمع العين واقشعرار الجسوم، فهذا أفضل الأحوال التي نطق بها الكتاب والسنة، وأما الاضطراب الشديد والنشي والموت والصياحات، فهذا إن كان صاحبه مغلوبا عليه، لم يلم عليه كما قد كان في التابعين ومن بعدهم، فإن منشأه قوة الوارد على القلب، مع ضعف القلب والقوة، والتمكن أفضل كما هو حال النبي ﷺ والصحابة، وأما قسوة وجفاء، فهو مذموم لا خير فيه.

قلت، لا شيء أبلغ من هذا التلميح، بل التصريح من جانب الشيخ، وقد لاح لي أنك عندما تصل الى هذه النقول الصحيحة وتتأملها بإنصاف، ترجع عن سوء ظنك بالقوم رضي الله عنهم، سيما عندما تتأمل هذا النقل الآخير عن شيخ الاسلام تقي الدين ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية، لأني أراك في الغالب ممن يجل ويحترم نظريتهما واختياراتهما، بما رأيت من إحترامهما عند أبناء العصر الحاضر، وها هو قد استبان لك ما قد كنت تجهله في الغالب عنهما، في شأن التصوف وأهله، ولم يبق لك إلا أن تقول: (**ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين**) وإني على ثقة من كون الرجوع عندكم

الى الحق، اولى من التمادي على الباطل حسبما قدمناه، لأنه لم يبق بأيديكم الآن، ما يعتمد عليه من النقول، إلا ما قد أوردتموه من كتاب [تلبيس ابليس] وقد كنا عرفناكم بقيمة هذا الكتاب فيما قبل. وعلى كل حال فإنها لم تبلغ مبلغ ما قد عرفتموه عن الأئمة وكتبهم المجمع على صحتها، وما حوته من النقول من عهد الأئمة الأربعة إلى ما يقرب من عصرنا هذا، وهو وإن كان يعتبر كافيا ولو عند غير المنصف. ظهر لي أن أزيدكم نافلة مما ينقل عن نقاد المتأخرين، وممن اشتهر بالذكر في الخافقين، خصوصا بين أبناء العصر الآخر، كجناب الشيخ محمد عبده رحمه الله، وها أنا الآن أتكلم فيما يخص جنابه، لا من ناحية كونه كان ممن يجل مذهب التصوف ويحترم رجاله، بل من ناحية كونه كان صوفيا بأتم معنى الكلمة ولك أن تقول، كان من المتعمقين في الحقائق العرفانية والغوص النهائي، والقدم الراسخ في القول، بوحدة الوجود على طريقة ابن عربي الحاتمي رضي الله عنه. وقبل التنصيص على ذلك، أقدم لكم كيف كانت علاقته برجال التصوف من أول أمره. قال العلامة رشيد رضا، وهو من أخص أتباع الأستاذ (في الجزء العاشر من المجلد الثامن من المنار) الصادر في 17 جمادي الأول سنة 1323. قال الشيخ محمد عبده حاكيا عن نفسه أن أول استلفاتي لطريق القوم، هو أن الشيخ درويش وكان من أقاربه، دفع إليّ كتابا فيه بعض رسائل تشتمل على شيء من أخلاق القوم ومعارفهم لنقرأها عليه، فدفعته له بعنف، لأني كنت لا أريد القراءة لما تلبست به من حب

الملاهي، ورميته له ثم عاودني به، وهكذا كان يكرر عليّ الطلب الى ان طاوعته لذلك، ولما أمعنت النظر في الكتاب، أخذ بمجامعي إلى أن صرت لا أمل من قراءته، وكان يفسر لي كل ما أشكل علي، وكانت هاته الرسائل، تحتوي على شيء من معارف الصوفية، وكثير من كلامهم في آداب النفس وترويضها على مكارم الأخلاق، وتطهيرها من دنس الرذائل، وتزهيدها في الباطن من مظاهر هذه الحياة الدنيا؛ ولم يأت عليا اليوم الخامس إلا وقد صار أبغض شيء إلي ما كنت أحبه من لعب ولهو وزهو، وعاد أحب شيء إليّ ما كنت أبغضه من مطالعة كتب القوم، وكرهت صور أولئك الشبان، الذين كانوا يدعونني الى ما كنت أحب، ويزهدونني في عشرة الشيخ، ثم قال: وبعد ذلك سألت الشيخ ما هي طريقتكم، فقال: طريقتنا الاسلام، فقلت أوليس كل الناس مسلمين، فقال: أَوَماَ رأيتهم يتنازعون على التافه من الأمور؟ أَوَماَ سمعتهم يحلفون بالله كاذبين بسبب وبغير سبب؟ فكانت هذه الكلمات كأنها نار أحرقت ما كان عندي قبل ذلك من المتاع القديم، متاع تلك الدعاوي الباطلة، والمزاعم الفاسدة، ومتاع الغرور، بأننا مسلمون ناجون، وإن كنا في غمرة ساهين، سألته ما وردكم الذي يتلى في الخلوات عقب الصلوات. فقال: لا ورد لنا إلا القرآن، نقرأ مع كل صلاة أربع أرباع مع الفهم والتدبّر، فقلت أنّى لي أن أفهم القرآن ولم أتعلم شيئا؟ قال: أقرأ معك ويكفيك أن تفهم الجملة، وببركتها يفيض عليك التفصيل. فإذا خلوت فاذكر الله على طريقة بينها لي، وأخذت أعمل ما قال

لي من اليوم الثامن، فلم تمض عليّ مدة ايام، إلا وقد رأيتني اطير بنفسي في عالم آخر، غير الذي كنت أعهده، واتسع عندي ما كنت أعهده، واتسع عندي ما كان ضيقا، وصغر عندي ما كان متسعا، وعظم عندي أمر العرفان والنزوع بالنفس الى جانب القدس، وتفرقت عني جميع الهموم، ولم يبق لي إلا هم واحد، وهو أن أكون كامل المعرفة، وكامل آداب النفس، ولم أجد من يرشدني الى مما وجهت إليه نفسي، إلا ذلك الشيخ الذي أخرجني في بضعة أيام من سجن الجهل الى فضاء المعرفة، ومن قيود التقليد الى إطلاق التوحيد، هذا هو الأثار الذي وجدته في نفسي من صحبة أحد أقاربي وهو الشيخ الدرويش، خضر من أهالي مديرية (البحيرة) وهو مفتاح سعادتي إن كانت لي سعادة في هذه الحياة الدنيا، وهو الذي كشف لي ما كان غاب عني، مما أودع في فطرتي. الخ قلت: وفي ظني، أن هذا النقل كافٍ في صحة ما أثبتناه من كون الأستاذ المذكور كان صوفيا حقيقيا، أو تقول كان صوفيا بكل معنى الكلمة، أما معلوماته في مشرب القوم الصوفية فهي تبرهن بنفسها على أن له قدما راسخا في معلوماتهم رضي الله عنهم، وإن شئت قلت، رحمه الله من المتغالين في إثبات وحدة الوجود، على ما يشبه مشرب (ابن عربي الحاتمي)، حسبما قدمناه، وإليك ما جاء عنه في الجزء الثاني من رسالته المسماة «بالواردات [1]» قال ما نصه بعد كلام.

---

1) وهاته الرسالة مذكورة في تاريخ حياة الأستاذ الذي هو بقلم السيد رشيد رضا وجلها من غوامض التوحيد على طريقة السادات الصوفية رضي الله عنهم.

ولنرجع لتحقيق الحق، فنقول: انت تعلم أنه لما لم يكن وجود إلا لذاته، فحقيقته حقيقة الحقائق، وذاته ذات الذوات، وجميع ما تتوهمه إنما هو من الإعتبار لتلك الذات، فلا بد أن تقول إن علمه عين ذاته، وهو عين علمه بذاته، وهو عالم بجميع شؤونه وأطواره، وأن جميع ما تشرف بالبروز، فإنما هو تجلي ما في العلم، ولكن لضيق ظرف الخارج عن أن يسع المراتب الغير المتناهية التي يقتضيها، حسبما لكل شيء في ذاته حصل الترتيب في التجليات، فكما أن ذاته واحدة بالذات والكثرة، إنما وقعت في عالم التجليات، فهكذا علمه بالكل واحد بالذات وكثرته في عالم التجليات، فما برز في الوجود إلا ما كمن في العلم الذاتي، ولا فصل إلا ما أجمل فيه، فهو العالم بكل شيء **(لا يعزب عنه مثقال ذرة)**. فدقق النظر وإياك أن تحجبك الكثرة عن ذات الوحدة، فإن البحر لو علم بذاته، فليس يحتاج الى علم آخر يعلم به أمواجه، وهذا قد يوافق وجه قول من يقول: إن العلم قديم، ومتعلقه حادث، ولكن قد ضل سواء السبيل، فوقع في تيه الأباطيل، وأيضا يقرب مما يقال إن للأشياء وجودا علميا ووجودا شهوديا. ومما يقال ان للشيء وجودا بحسب ذاته، ووجودا في ذات العلة فتفطن، وطبق إن كنت من أهل النظر. وقال في ثبوت الواجب بعد كلام: فإذاً، حدوث شيء من العدم الصرف محال. وهذا حكم بديهي قد نبهناك عليه، فإذًا جميع ما صدق عليه إسم الممكن محتاج الى علة، ليست تلك العلة مباينة له بالمرة، وتلك العلة، تنتهي الى مرجع خارج عن ماهية الإمكان،

وهو الواجب الحقيقي، الذي هو وجود لذاته، وكل مقيد فهو محتاج إليه، وهو منتهى التقيدات ومرجعها **(وإليه يرجع الأمر كله)** مع كون المعلول ليس مباينا لعلته، كذلك هو ليس عين العلة، ولكن طور من أطوارها وشأن من شؤونها، ولا وجود له إلا وجودها، فإذًا، ليس في الوجود الحقيقي الذاتي، إلا ذات مطلقة واحدة، لا تعدد فيها إلا بتعدد اعتباراتها، ولا تقييد فيها بوجه من الوجوه وهو واجب الوجود، فافهم. ليس في الإمكان أوسع من هذا البيان، وتوضيح الواضح مشكل، فالحق بين يديك ظاهر، فلا تشغل نفسك بأباطيل التسلسل، فإنها تحتاج إلى أوهام ملء الأكوان. ثم قال: تقريب لا تستبعد أن المعلول شأن من شؤون علته، فإنك لست تغفل عن كون البيت شأنا لأجزائها وأعتبارا من اعتباراتها، والشجرة طور من أطوار الحبة، وشأن من شؤونها، والأمواج طور من أطوار البحر وشأن من شؤونه، وهكذا جميع الأمور. ثم قال: والعجب للمتكلمين والحكماء المقلدين لما عجزوا عن الارتقاء الى درجة الكمال، كيف اتخذوا العدم سلما لتطلع الحقيقة، ويزعمون أن هذا تنزيه لحضرته، ولكن نحن نقول فليس وجود إلا وجوده، وليس وصف إلا وصفه، فهو الموجود، وغيره العدم.

قال الأمراء الأولون، رضي الله عنهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي: ما رأيت شيئا إلا رأيت الله قبله أو بعده أو فيه أو معه، كل واحد من هذه الأقوال ينسب لواحد منهم، ولا يقعن في وهمك أن هذا قول بالحلول، فالحلول إنما يكون بين وجودين

أحدهما حال في الأخر، ونحن نقول: لا وجود إلا وجوده. اهـ

وهذا ما يحسن نقله من جهة إثبات، ما أردنا إثباته في الموضوع، وفي ظني أنه لا شيء أبين من هذا، في كون حضرة المشار إليه كان صوفيا بكل معنى الكلمة. وأما ما يرجع لأفراد المتصوفة في نظر هذا الإمام، يتضح لكم بما ذكره في شرحه على مقامات «بديع الزمان الهمداني» عند قول المصنف: فلما تجلينا وأخبرنا بحالنا أسفرت القصة عن أصل كوفي ومذهب صوفي.

قال الأستاذ محمد عبده رحمه الله: والصوفي نسبة إلى الصوفية، وهم طائفة من المسلمين همهم من العمل، إصلاح القلوب وتصفية السرائر، والإستقبال بالأرواح، وجهة الحق الأعلى جل شأنه، حتى تأخذهم الجذبات لله عمن سواه، وتفنى ذواتهم في ذاته وصفاتهم في صفاته، والعارفون منهم البالغون الى الغاية من سيرهم في أعلى مرتبة من الكمال البشري بعد النبوة. اهـ

فلتتأمل يا حضرة الأخ، قوله في درجات الكمال البشري بعد النبوة. وقد تقدم لنا هذا النقل في صدر الكتاب.

ثم أنظر، إن شئت ما ذكره تلميذه العلامة رشيد رضا في «الجزء الثاني عشر من المجلد الثاني من المنار» تاريخ 16 جمادى الثانية سنة 1323. قال لي يعني (الشيخ محمد عبده) مرة أخرى: إن بقاء الأزهر متداعيا على حاله في هذا العصر محال، إما أن يعمر وإما أن يتم خرابه، وإني أبذل الجهد المستطاع في عمرانه، فإذا دفعتني الصوارف إلى الأياس من إصلاحه، فإني لا آيس من الإصلاح الإسلامي، بل أترك الحكومة.

وأختار أفرادا من المستعدين، فأربيهم على طريقة التصوف التي ربيت عليها، ليكونوا خلفاء لي في خدمة الإسلام. اهـ

ولا شك أن بهذا النقل تتجلى لك نفسية الشيخ محمد عبده في أجلى مظاهرها من جهة علاقته بالتصوف.

وبالجملة أن رغبتهم في الفن، هي التي جمعتهم بالسيد جمال الدين الأفغاني رحمه الله، وهي التي أحدثت تلك الرغبة بينهما في أول الصحبة. ويشهد لهذا ما ذكره العلامة رشيد رضا في بعض «أجزاء المنار من المجلد الثامن» قال: وأما ملاقاته يعني الشيخ محمد عبده لجمال الدين الأفغاني، أن أحد المجاورين برواق الشام قال له: أنه جاء مصر عالم أفغاني عظيم، وهو يقيم في خان الخليلي. فسر به وأخبر الشيخ حسنا ودعاه إلى زيارته معه فألفياه يتعشى فدعاهما الى الأكل معه فاعتذروا، فطفق يسألهما عن بعض آيات القرآن وما قاله المفسرون والصوفية فيها، ثم يفسرها لهم فكان هذا مما زاد فقيدنا به عجبا وشغفه حبا، لأن التصوف والتفسير هما قرة عينه أو كما قال مفتاح سعادته. الخ

قلت إن هاته التعاليم التي أخذت مأخذها من نفس الشيخ محمد عبده، والسيد جمال الدين الأفغاني [1]، والتي هي نفس

1) ملخص ما به الحاجة الى ذكره، أن السيد جمال الدين الأفغاني كان صوفي التربية والمشرب، وهو الباعث الواحد للشيخ محمد عبده على التعلق به والإنتماء إليه كما تقدم، ويشهد لذلك ما جاء في بعض التراجم، ومنها ترجمته التي جاءت على رسالة له في القضاء والقدر قال المترجم: كان الفقيه رحمه الله حنفي المذهب بيد أنه لم يكن مقلدا لما أنه لم يفارق السنة الصحيحة وكان شديد الميل إلى السادات الصوفية، وجاء في كتاب «أشهر مشاهير الشرق

التعاليم التي ثبتت جذور أصولها في صميم علماء السنة خلفا عن سلف حسبما تقدم لكم نقله، هي التي تبقى راسخة في قلوب الأشحة على دينهم مادام للدين جناب يحترم بين أبناء المسلمين، وهي التي نرى خاصة الكتاب المعتدلين محتفظين بها إلى الآن. وما كان احتفاظهم بها إلا إحتفاظا بجوهر الدين من أن يلحقه ما يذهب بصبغته أو يمس بجوهره، على أن التصوف عند من حقق مباديه، هو منتزع الجوهر من خصال الدين الحميدة، وممثل للطائفة الروحية، وعلى هذا التعريف تنطبق سائر التعاريف في القديم والحادث، وقد حصل الإكتفاء والحمد لله بما سبق نقله.

ومهما بلغ الأمر من جهة الاكتفاء لا يمنعنا من إستطراد ما يعتبر ذيلاً لكلام الشيخ محمد عبده من أقوال خاصة تلامذته، وأقوال غيرهم ممن اشتهروا بسعة الإطلاع وسيلان الأقلام في عصرنا هذا.

ومن اولئك جناب العلامة رشيد رضا قال في جزء من فتاوي المنار طبع باستقلاله بعد ما سرد جملة كافية فيما يرجع لكلام بعض الأئمة

في الجزء الثاني صحيفة [56]» بعد كلام، فتلقى يعني السيد جمال الدين في أول تربيته مباديء العلوم العربية والتاريخ، وعلوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه واصول وكلام وتصوف، وفي صحيفة [59] قال: توجه إلى مصر وحملوه على التدريس، فقرأ من الكتب العالية في فنون الكلام والحكمة النظرية من طبيعية وعقلية، وفي علم الهيأة الفلكية، وعلم التصوف، وجاء في ترجمته التي على كتابه «العروة الوثقى» قال: أما مذهب الرجل فحنفي، وهو وإن لم يكن في عقيدته مقلدا، لكنه لم يفارق السنة الصحيحة مع ميل إلى السادات الصوفية رضي الله عنهم.

قلت: ان الذي يتأمل هاته النقول بإنصاف، لابد وأن يتضح عنده أن السيد جمال الدين رحمه الله، كان صوفي التربية لا محبا للصوفية فقط، بناء على أن الرجل لم يكن مقلدا كما تشهد بذلك تلامذته والله أعلم.

في معنى التصوف ومكارم خصاله قال: وأنا قد ذكرنا في تاريخ الأستاذ الإمام، عين ما ذكره هؤلاء المحققون، في بيان حقيقة الصوفية، وزدنا عليهم مسائل مهمة، أستنبطناها من كتبهم ومن كتب التاريخ، جعلناها في ورقتين مثل «المنار» ملخصها: أن الصوفية طائفة أنقطعت إلى الزهد في الدنيا، والعمل للآخرة برياضة النفس، وتربية الإرادة، والأخذ بالعزائم، ومحاسبة النفس، وحسن النية، والمبالغة في العبادة، وغايتهم الوصول إلى تجريد التوحيد، وكمال المعرفة بالله، ثم ادعى حالهم من ليس منهم غشا وتلبيسا، ولبس لباسهم مع تناقض حاله لحالهم دعوى وتقليدا، وأن رياضة النفس وتزكيتها، تثمر للصادق فيها علما وعرفانا، سنن الله في الأرواح وأسرار قواها، وأحوالا وأذواقا غريبة غير مألوفة ولا معروفة لغير أهلها. منها التأثير بقوة الإرادة في أمور الكون، كشفاء مريض، وتنفير من الشر، وجذب إلى الخير؛ ويسمونه التأثير بالإرادة والهمة [1] ومنها الغوص على دقائق أسرار الشريعة،

---

1) قلت: ان ما أثبته حضرة الكاتب هنا يشبه ما قد كنت عثرت عليه من الكلام لجانب المجاهد المخلص الأمير شكيب أرسلان في تعليقه على كتاب حاضر العالم الإسلامي، وقد كان جاء فيه على شيء من ذكر الكرامات أو بعض الخوارق على سبيل الإستطراد، وعندما جاء على آخرها قال: بقي علينا شيء لابد من الإشارة إليه، وهو أن الذين يقرؤون هذه السيرة من النشأة الجديدة، يرون فيها ما لا يوافق مشربهم من القول بالولاية والكرامات، والإعتقاد بالكشف وما فوق الطبيعة مما يرونه حديثا ماضيا لا يليق بالتربية العصرية، التي ينبغي أن تكون مبنية على محض الحقائق الفنية وقلما يعظم في عين هذه النشأة رجل ينطوي على هذه العقائد مهما كان عظيما فصار ما هناك أنهم يحترمونه لحسن نيته وخلوص عقيدته لا غير. اهـ

ثم أخذ حضرة الكاتب في إستجلاب ما يدحض به حجة الخصم من نحو ما يثبته الواقع من بين فلاسفة العصر الحاضر. اهـ وهذا الحديث كافٍ في الموضوع من حضرة الكاتب من جهة ما يثبت حسن طويته من جهة التصوف وأهله وإن كنا لم نقف على حديث مديح له في الموضوع.

وحكمها، وصفات النفس البشرية وقواها وعللها الخ. ومنها غير ذلك إلى ما لا حاجة الى ذكره هنا، وقال في صحيفة [39] بعد كلام: لأن أصل طريقهم (يعني الصوفية) تزكية بالعلم والعمل الشرعيين، مع الصدق والإخلاص، والأخذ بالعزائم ومحاسبة النفس حتى على الخواطر، ومن المأثور المشهور عن أئمة الصوفية قولهم: التصوف أخلاق، فمن زاد عليك في الأخلاق زاد عليك بالتصوف إلخ.

قلت: وفي ظني أنه لا شيء أبين من هذا فيما نريد إثباته وزاد على ذلك حضرة الكاتب، ما أثبته للصوفية من تأثير الإرادة وغيرها من الخوارق التي تعتبر عند البعض من أهل العصر الحاضر من الخرافات، ولا مستند لهم في ذلك، إلا سوء الظن وعدم إعتبارهم ما للروح من الكمالات والخصائص الذاتية، وهذا من حضرة الكاتب، أبلغ ما يعتبر في الصراحة، وأوضح ما يتأتى في التعريف.

وقال جناب الفاضل الإجتماعي السيد فريد وجدي في الموضوع: التصوف هو مذهب، الغرض منه تصفية القلب من غير الله ، والصعود بالروح إلى المكانة الرفيعة بإخلاص العبودية لله والتجرد عما سواه الخ.

(نقله عنه صاحب كتاب الإرشاد الى سبيل الرشاد [1]).

---

1) قلت : فإن حضرة الكاتب زيادة على تعريفه للتصوف بما عرفه به أنه يوجد في بعض كتابته ما يثبت له أعلى مدارك رجال التصوف من جهة لطائفهم الروحية حسبما يؤخذ مما نشره في مجلة الحياة تحت عنوان «الوجدانيات» قال بعد كلام معبرا عن نفسه : فأردت يوما وقد

وقد ذكر العلامة الشيخ مصطفى الرفاعي، كلاما في كتابه (إعجاز القرآن) يثبت ماله من كبير الإحترام لرجال التصوف، قال: ولبعض المحققين من مشايخ الصوفية، دقائق التعبير لم تتفق لغيرهم، لسمو أرواحهم ونور بواطنهم.

ومنهم كان الإمام السلطان الحنفي صاحب المقام المشهور في القاهرة سمعه يوما شيخ الاسلام البلقيني، يفسر آية فقال: قد طالعت أربعين تفسيرا فما وجدت فيها شيئا من تلك الدقائق اهـ.

وقال الغلامة الشيخ عبد المجيد الشرنوبي في شرحه على تائية السلوك: اعلم أن طريق الصوفية هي طريق الابرار، ولم تزل عند سلف الامة وكبارها من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع الى الله، والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها؛ فإنه لما فشا الاقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، أختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية، فلما كتبت العلوم ودونت، وألف الفقهاء الفقه وأصوله، والتوحيد والتفسير وغير ذلك، كتب رجال من أهل هذه الطائفة في طريقهم. فمنهم

= أجهدتني الأعمال أن أسرح في علم الخيال، رجاء راحة من كد الاشغال واصطياد شاردة أسير بها الامثال، وأجعلها حكمة في افواه الرجال، فسددت نوافذ الحواس الخمس، وقطعت علائق الفكر من عوالم الحس، ثم دخلت إلى ذاتي فسلمت عليها وقد طال عنها غيابي، وغلظ دونها حجابي فأطالت عتابي وأخشنت خطابي، وكادت أن تجعل الهجر عقابي، لولا أن أعطيتها من العهود والاقسام بأن لا يقطعني عنها عالم الأجسام ولو فدحتني النوائب العظام والأمور الجسام، ثم أذنت لي فدخلت إلى عالمها الواسع ومجالها الشاسع، فوجدت فضاء لا يثبته الفضاء، وجوًّا لا كالأجواء، فما هي إلا معاني تتعرف إلى معاني ولطائف تتلطف عن الأذهان، ولا يكاد يدركها إلا الوجدان. الخ

من كتب في أحكام الورع، ومحاسبة النفس في الأخذ والترك، ومنهم من كتب في آداب الطريق، ومنهم من جمع بين ذلك كله. اهـ

وإلى هنا، يجمل بنا الإقتصار في النقل عن هؤلاء المشاهير من كتاب العصر الحاضر، زيادة على ما قدمناه، عن علماء بقية العصور لأن فيه الكفاية، وجريا على قولهم يكفى من الغل ما أحاط بالعنق، وإلا، فالواقع يترجم على أن سائر من عاصر هؤلاء المشار إليهم، من علماء طبقاتهم، مطبقون على إحترامهم لمذهب التصوف ورجاله، كثيرا ما كانت تتظافر فتاويهم، وتتحد في الحكم بالزيغ على من أستنقص مذهب التصوف، أو تظاهر بالإذاية لأهله، ولو تتبعنا ذلك، لطال بنا الحديث، وقد نص على ذلك كثير من المؤلفين، ومن جملتهم صاحب (النصرة النبوية) فقد جمع كتابه جملا كافية ونقولا كثيرة من ذلك النوع تختص بعلماء مصر ونواحيها، وكذلك علماء تونس لم يشتهر عنهم إلا الذب عن مذهب التصوف، بكل ما في استطاعتهم كبيرهم وصغيرهم، ويكفينا دليلا على ذلك ما كتبوه في هذا العصر الاخير من تقريظاتهم لكتاب (السيف الرباني) لخير المتأخرين الشيخ (المكي بن عزوز) رحمه الله، وفيه الذي كان ينافح فيه عن (الإمام الجيلاني) ردا على من كان يحاول تنقيصه من جهة النسب والمشرب، وقد توفر عدد الكتاب في ذلك إلى ما يزيد عن الاربعين عالما، مما يرجع إليهم في المعضلات من علماء تونس جزاهم الله خيرا، ومن أولئك الأجلة، جناب العلامة

النسيب، الشيخ محمد الاخضر، نجل سيدي الحسين التونسي منشأً، المصري مهجرا، فإنه ذَيّل الكتاب بقصيدة عصماء. ومما قاله في معرضها:

أيا حبذا التأليف عقدا مرصعا
تهلل من حلي الجواهر والدر
أيا حبذا سيفا يزين نجاده
طراز لعمري ما بدا سالف العصر
أيا حبذا روضا غدا اليوم مثمرا
عرائس أفكار تبدت عن الخدر
ألا فارتشف كأس المدامة واقتطف
من أزهاره زهر الربا طيب النشر
هو الرشد لا تجنح لقول معنت
عليه أنثنى خبث اللآمة بالشر
فتعسا له هلا وقى دينه بكى
عليه كمبكى أخت صخر على صخر
يحاول أن يطفي سنا الشمس بئسما
نحاه لقد خابت مقاصد ذا الغمر

قلت: وهذا قليل مما ينقل عن علماء تونس، وعلماء مصر وغيرهما من مدن الإسلام. أما ما يخص المغرب الأقصى فإنه قل أن يوجد فيه من يخطر بباله أو يختلج بضميره وجود من ينتقد مذهب التصوف، أو ينتقص أهله، ولو بقليل من اللفظ ما دام يحشر نفسه في دائرة أهل السنة.

على اني لا أنكر أيها الاخ، وجود من يستحق الإنكار عليه من المتداخلين بين أفراد المتصوفة، وما أكثر عددهم، ولو أنكم أقتصرتم على تلك الطبقة، لكنتم أرتكبتم السلامة وأحسنتم لأنفسكم، ولنا أيضا بوجه خاص، إنما الذي أساءنا منكم، هو استرذالكم مذهب القوم من أصله، والقول بتنقيص رجاله بدون استثناء، وذلك هو الذي دفعنا الى استجلاب هاته النقول عن أئمة الدين، والخاصة العلياء من الموحدين على نية تقديمها بين أيديكم كشفيع، أو شاهد عدل يقوم عندكم مقام الحجة الصريحة في تبرير ساحة الصوفية مما توهمتم إلصاقه بهم وعلى الأقل من ذلك تبعثكم هاته النقول، على أن تنظروا إخوانكم المتصوفة من أفراد عامة المؤمنين، الذي يجب علينا وعليكم احترام كل فرد منهم على حدته قال ﷺ: **(من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم له ذمة الله وذمة رسوله فلا تخفروا الله في ذمته)** (رواه البخاري وغيره رضي الله عنهم).

وهذا آخر ما نستلفتكم إليه، مما يجب علينا وعليكم العمل به راجيا من الله أن ينفعني واياكم بخصال الدين، التي من أهمها حسن الظن بالله وبالمسلمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. والسلام عليكم من أخيكم راقم الحروف المكني نفسه بالناصر معروف. اهـ

ولما فاح مسك ختام هذه الرسالة المباركة، وأطلع عليها بعض العلماء الأجلة الأبرار، بادروا الى تقريظها انتصارا للحق بالحق، وقياما بواجب التعاون على البر والتقوى، وغيرة على ركن من أركان الدين، أن تعبث به يد الأشرار بمرأى ومسمع من حماته ذوي الهمم العالية الأحرار. فمن جملة أولئك العلماء الأجلة، الفقيه العلامة الصوفي المحدث الكبير، مولانا الأستاذ سيدي الشيخ توفيق الأيوبي الأنصاري، ثم الحمزاوي الحسيني فقال رضي الله عنه:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي أجتبى في هذه الأمة، من كل قرن مسابقين، وجعلهم خلفا للسلف الصالح، ونصراء للدين المبين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد القائل **«يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له ينفون عنه تحريف الغالين وتأويل الجاهلين وانتحال المبطلين»**. وعلى آله وصحبه، الذين شيدوا أركان شريعته، وسلكوا على منهاج طريقته.

أما بعد، فقد أطلعت على «رسالة الناصر معروف في الذب عن مجد التصوف» للعارف بالله الكبير الأستاذ الشهير السيد الحاج أحمد بن مصطفى العلاوي المستغانمي، فوجدتها ظاهرة البرهان، قوية الحجة، سلك مؤلفها فيها أقْوَم محجة ورد على من اتخذ إلهه هواه واتبع خطوة الشيطان ووالاه. والقلب إذا اعرض عن الله صحبته الوقيعة في اهل الله، فنعوذ بالله من الخذلان والغرور، **(ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور)** فجزى الله المؤلف خير الجزاء، فإنه أحسن في مؤلفه ما شاء، وكشف عن وجه

الحقيقة النقاب، وجلا عروسها على اولي الالباب، فأنجح الله أعماله وآماله، وأكثر في الأمة المحمدية أمثاله، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وتابعيه وحزبه. قاله بفمه وكتبه بقلمه.
محمد توفيق الأيوبي الأنصاري - ثم الحمزاوي الحسيني

ومنهم الفقيه العلامة الصوفي، المحدث الفهامة خطيب السنانية الكبرى، والمدرس بأموي دمشق، النسيب الحسيب، سيدي الشيخ محمد هاشم رشيد الخطيب الحسني القادري، قال حفظه الله آمين

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد الله الذي أيد الحق بالاسناد وعدول النقل، وجعل براهين المعجزات في كل أمر هداية لصحيح النظر قويم العقل، ومنح أهل العناية السلامة من أمراض الأباطيل، وأكرم أهل التوفيق بالشفاء من الإصرار على أوهام الأضاليل، فاغتسلوا من جنابة الغفلة بمعين الانابة وأعرضوا عن لغو القول لما أبصروا صوابه، كما هو شأن المتقين إذا مسهم طائف من الشيطان، يلوذون بالله ويرجعون الى مقام الشهود والإحسان، فسبحان من أظهر شمس الإسلام ساطعة لا يمسها كسوف. وألهم المرشد الأكبر (سيدي الأستاذ الحاج أحمد العلاوي المستغانمي) كشف الران عن أهل الغفلة المنيبين إلى الله تعالى «برسالة الناصر معروف». فطرد وساوس الزيغ والشبه عن سبيل التصوف. بما أورده عن السلف والخلف، من صحيح النقل وبراهين العقل بأبدع تصرف. وصلى الله وسلم، على من جاء باليتيمة العصماء،

والمحجة النقية البيضاء، القائل: (**يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين**) وعلى آله نجوم الإهتداء، وأصحابه أئمة الإقتداء.

أما بعد، فقد أسعدني التوفيق بورود ساحل هذا التحقيق، فألفيته القول الفصل، الذي لم يشب بشائنة الهزل وحسبك أن كل نقل منه فهو وحده حجة وعمدة. فكيف وقد تضافرت نقوله بكثرتها فهي لتاييد الحق نعم العدة. والخلاصة أن الجنيد رحمه الله ورضي عنه ونفعنا بمحبته، هو إمام الطائفتين، والتصوف هو سفينة السعادتين، ومن لم يتخلق بآدابه ويذق طعم شرابه، مات مصرا على كبائر الغفلة، من الجهل والبغض والحسد والعجب والكبر والحرص والإصرار على عبودية الهوى، وهو لا يعلم، بل يخاف على سلامة إيمامه. نسأل الله اللطف والعافية. ويكفي لمعرفة فضل التصوف، وطائفته واتباعهم ومحبيهم المتحققين بآدابه. ما في الفتاوي الحديثية لمحقق الإسلام ابن حجر الهيتمي وكتب الغزالي (إذ هو حجة الإسلام في المعقول والمنقول، على رغم أنف كل معترض) وكتب الشعراني، وابن عطاء الله والنبهاني ومن قبلهم وفي عهدهم أو بعدهم. كما أشير في هذه الرسالة الى قطرات من بحورهم رضي الله عنهم، وعن كل صادق في موالاتهم، وكل عامل بأخلاقهم وصفاتهم. ونعوذ بالله من زمان أفضى السكوت فيه عن نصرة الحق الى جرأة الأدعياء على مقام السادة الأصفياء. جزى الله مؤلف هذه الرسالة الاستاذ النحرير

المحقق خير جزاء، وأطال حياته وعمم نفعه، كما نشكر للحبيب القدوة الأخ في الله الأستاذ سيدي محمد الهاشمي التلمساني، اهتمامه بنشرها مستقلة بين المسلمين، لما في ذلك سن عظيم الفائدة وتعميم الثمرة في هذا العصر، الذي كاد لا سمح الله أن يفقد فيه من ينتصر للحق، بطريق مثمر مشروع، بل أكثر العاملين اليوم قد أعماه هواه، واقتاده الشيطان الى ما لا يثمر ولا يرضي الله **(وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا)** وأما ما يقتصر على نشره في الصحف السيارة فلا يعم الإطلاع عليه. وإن احتيج الى مراجعته فقد يعسر جمعه والوصول إليه. فشكرا مكررا للمؤلف والناشر، حيث قاما في هذا الرد بفرض كفاية عن المسلمين **(فاعتبروا يا أولي الأبصار)** ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وصلى الله على سيدنا محمد إمام المتقين، وخاتم الأنبياء والمرسلين. والحمد لله الذي هدانا لهذا، بمحض فضله وكرمه، اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على الحق. فمحبة الصادقين في آداب التصوف والإقتداء بهم هو ما أدركت عليه أساتذتي الكرام أئمة المسلمين مصابيح الظلام. منهم محدث الدنيا علامة المعقول والمنقول العمدة المرجع الأكبر إمام المسلمين، سيدي الشيخ محمد بدر الدين الحسني. وأبو حنيفة الشام مفتي ديارها، الهمام سيدي العلامة الأجل، السيد محمد عطاء الله الكسم، وشافعي عصره المحقق المفضال العلامة الأستاذ الشيخ أحمد الجوبري. والحبيب المفدى علامة الإسلام ومحقق الأنام سيدي الأستاذ الشيخ أمين سويد. والأستاذ الكبير علم الولاية العلامة

النحرير سيدي الأستاذ الشيخ محمد توفيق الأيوبي الأنصاري أطال الله حياتهم. ومنهم المحدث الأكبر، أسد الله سيدي الحبيب، العلامة المفدى المرحوم السيد محمد بن جعفر الكتاني، وإمام العارفين خطيب الأدباء والصلحاء والمسلكين، سيدي الأستاذ الكبير العلامة الفريد السيد محمد المبارك، وخطيب الأعلام عظيم وجهاء الشام، سيدي الوالد المرحوم، العلامة السيد رشيد الخطيب. وبحر الأعلام خطيب الأنام شمس الإسلام محدث الحجاز والشام، ابن عمي المرحوم السيد محمد أبو النصر الخطيب. ومحقق الأعلام بركة الأنام، العلامة القدير سيدي المرحوم الشيخ عبد الوهاب الشركة، وشمس زمانه المحقق الفريد علامة أقرانه، سيدي المرحوم الشيخ مصطفى الطنطاوي، والمحقق القدير علامة المعقول والمنقول، وصدر أعيان الفحول، ابن عمي المرحوم الشيخ محمود الخطيب، رحمهم الله أجمعين وحشرنا وأياهم مع الصادقين (الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) (وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر)، (وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين). في 21 ذي الحجة 1350 رقمه بيده أسير الذنوب الراجي منه تعالى إصلاح العيوب، خطيب السنانية الكبرى ومدرس أموي دمشق، محمد هاشم رشيد الخطيب الحسني أباً وأما، والقادري أبا والعباسي جدَّ أبٍ لأمٍ كان الله له.

ومنهم الفقيه العلامة الشيخ زين العابدين بن الحسين التونسي أستاذُ اللغة العربية في مدرسة التجهيز والمعلمين بدمشق، قال حفظه الله آمين:

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وحزبه. وبعد، فقد تصفحت هذا الكتاب الجليل وإذ هو من الكتب القيمة جدير بالإقتناء والمطالعة، وإني لأطلق عنان الثناء لمؤلفه الأستاذ الفاضل الشيخ سيدي الحاج أحمد بن عليوة، لما بذله من الجهد في تأليف هذا الكتاب النفيس، الذي جاء دليلا على ما للأستاذ من الباع المديد، في علم التصوف، كثر الله من أمثاله آمين.

زين العابدين بن الحسين

ومنهم العلامة الأديب الصوفي، السيد محمد خالد الأنصاري أحد مشايخ الطريقة المولوية بحمص، قال حفظه الله:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله الذي قد ألهما ☆ علما لدنيا لمن قد علما
وكشف الحجاب عن قلوب ☆ ارباب اهل الحب للمحبوب
وأكمل الصلاة والسلام ☆ على ختام الانبيا الكرام
طه رئيس الشرع والحقيقه ☆ والآل حازوا أقوم الطريقه
وبعد ذا أتتني تي الرساله ☆ وماحوت عن صاحب الرساله
في ردع ضد السادة الصوفيه ☆ الحائزين الرفعة السنيه
وجدتها رسالة مبينه ☆ عن صحة الدلائل المتينه
وأصلها عن شرعنا العالي النضر ☆ من الكتاب وهو مسلك الخضر
قمعت الخصم أشد القمع ☆ بالمبحث العقلي بعد السمعي
فحفظ الحفيظ من ألفها ☆ لذى التقى وكل من الفها
وناظما هذه الدراري ☆ المولوي (محمد الانصاري)

ومنهم العلامة النحرير الصوفي الكاتب الفلكي الروحي الشهير الأستاذ سيدي محمد المأمون بن عبد الوهاب الأرزنجاني صاحب مجلة المناهج الروحية بدمشق، قال حفظه الله آمين:

التصـــوف وفائدتـــه

التصوف له مظهران، مظهر خارجي ومظهر داخلي، فالمظهر الخارجي، هو ما نراه في أعمال غالب المنتسبين الى الطرق اليوم، وأما المظهر الداخلي، فهو التربية الروحية، التي يقوم بها المربي الروحي الكامل نحو مريديه فيطهر قلوبهم من نزوات النفس الأمارة بالسوء، ويغرس فيها بذور الفضيلة السامية التي ترقي بهم من الحضيض الى ذروة التكامل الإنساني الأعلى، وذلك بترقية قواهم المكنونة، وصقل ملكاتهم الفطرية، وتنمية مداركهم الروحية. فالتصوف من هذه الناحية يعد من أعظم العلوم قدرا، وأكبرها فائدة وأجلها مقاما، وقد ادرك هذا السر المكنون الامم الراقية اليوم في الغرب، فلذلك راحوا يؤسسون معاهد عديدة للتصوف، في أروبا وأمريكا تحت إسم (التؤزوفي) لأنهم عرفوا أن الاقتصار على العلوم الطبيعية، لا يحل لهم لغز الحياة، ولا يُطَمِّن قلوبهم ولا يوصلهم الى السعادة المنشودة، ولا يهذب نفوسهم، مهما بلغوا السبق في مضمار الرقي المادي، هذا وإن هناك أناسا لم يفرقوا بين الغث والسمين، فلذلك راحوا يتحاملون على التصوف مطلقا من دون أن يفرقوا بين الصوفية الحقيقية، والمتصوفة المتطفلين على موائد القوم، إبتغاء الارتزاق من ورائها. ولعمري ان بين هذا وذاك بون شاسع كما بين الثرى والثريا.

ولهذا السبب، ألف الأستاذ المربي الكبير، الحاج أحمد بن مصطفى العلاوي المستغانمي رسالته «الناصر معروف في الذب عن مجد التصوف» لبيان الفرق بين الفريقين، والبرهان على لزوم اقتناء التصوف الحقيقي لكل إنسان، وأنه موافق للشريعة المحمدية، وقد أجاد حضرته في مؤلفه هذا، حيث أنه أثبت مدعاه بنصوص العلماء الأعلام، لئلا يبقى لأحد أدنى ريب، في فائدة التصوف ومنفعته العظمى، وأنه الوسيلة الوحيدة لنزع ما تأصلت في النفوس، من جذور الأخلاق السيئة، والعادات المستهجنة، وتحليتها بالفضائل والكمالات الإنسانية العالية. فجزاه الله عن الحق والحقيقة والعلم خيرا، ونفع المسلمين بعلومه آمين. كاتبه: محمد المأمون عبد الوهاب الأرزنجاني المدني، صاحب مجلة المناهج الروحية بدمشق الشام.

ومنهم الفقيه المدقق، العلامة المحقق الأديب الأستاذ الشيخ جميل الشطي، مفتي السادة الحنابلة بدمشق. قال حفظه الله آمين:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد، فإن التصوف إذا لم يكن ممّا دل عليه الدين الإسلامي صراحة، فإنه معلوم من الدين بالضرورة. وليس في وسع أحد أن ينكر أصله إلا جهلا أو مكابرة.

ويكفي في ثبوته من الكتاب، قصة الخضر وموسى عليهما

السلام، فإن المفسرين رحمهم الله، قد اعترفوا بأن هناك علما لَدُنياً فوق علم موسى، وأثبتوا به هذا العلم الشريف، وإن لم يرد به شرع ظاهر، وتكليف صريح، كما قرر ذلك حجة الإسلام الغزالي رحمه الله: ومن السنة مقام الإحسان الذي هو أحد أركان الدين الثلاثة، الواردة في حديث الإيمان والإسلام والإحسان، التي سأل جبريل عنها النبي عليهما الصلاة والسلام، وفيها يقول الإمام ابن السبكي رحمه الله: علوم الشريعة ثلاثة: الفقه وإليه الإشارة بالإسلام وأصول الدين، وإليه الإشارة بالإيمان، والتصوف إليه الإشارة بالإحسان. وما عدا هذه العلوم، إما راجع إليها، وإما خارج عن الشريعة.

ثم أن الإقتصار في النقل والنقد على كتاب (تلبيس ابليس) للإمام الحافظ ابن الجوزي رحمه الله، كما قال المؤلف حفظه الله، غير كاف للإحتجاج به مع احترام قدره وفضله، وإنما يحمل ذلك منه على أنه، إنما كتبه ردا على رجال من الصوفية، غلوا في دينهم، وخرجوا عن حدودهم، وهذا لا ينكر وقوعه حتى عند محققي الصوفية أنفسهم. فكان الرد على مثل هؤلاء، والإنكار عليهم من قبيل سد الذرائع. وهكذا يقال فيما وجد من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه، سواء انكاره على من سبقه من أئمة الصوفية، بحسب ما أطلع عليه من كلامهم، أو على من عاصرهم ورأى شذوذهم. وقد أثنى في رسائله على مثل أبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، وأبي مدين، والشيخ عبد القادر الجيلاني. وقال رحمه الله في فتاويه: إن الاجتماع لذكر

الله واستماع كتابه، والدعاء عمل صالح، لكن ينبغي أن يكون في بعض الأوقات والأمكنة فلا يجعل سنة راتبة، وهذا من الشيخ ابن تيمية، كان لثبوت أصل التصوف عنده قدس الله روحه.

وأما الامام العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى، فإن من يمارس كلامه في كثير من كتبه، يدرك منه روحا عالية، ونزعات صوفية فهو صوفي بالطبع، فضلا عن تصريحه في شرح منازل السائرين، بأن الناس في شطحات الصوفية ثلاث طوائف. والأولى حجبت عن محاسن الصوفية، لأجل هذه الشطحات. والثانية حجبت بما رأت من محاسن القوم، عن عيوب الشطحات. والثالثة أهل العدل والإنصاف الذين أعطوا كل ذي حق حقه.

أما علاّمتنا السفاريني رحمه الله، فإنه، إنما أنكر على الصوفية وحدة الوجود، لأنها تخالف في الظاهر عقيدة السلف، كما ذكر ذلك في عقيدته، وانكر عليهم أيضا آلات اللهو والرقص، حيث يستعملها بعضهم، والسامع الذي أباحه أكثرهم. كما حكي ذلك في آذابه، وهذا لا ينافي الإعتقاد بأصل علم التصوف، واحترام رجاله المتجردين عما ذكر. ورحم الله إمامنا الامام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، فانه لما قال أحدهم عن الشيخ معروف الكرخي: أنه قصير العلم قال له الإمام: أمسك، عافاك الله، وهل يراد من العلم إلا ما وصل إليه معروف.

وما أحسن قول الامام مالك، رضي الله عنه: (من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق) كأن الفقه علم والتصوف عمل. وقول بعضهم

ان نظر الصوفي أخص من نظر الفقيه، فلهذا صح إنكار الثاني على الأول، ولا يصح عكسه، وصوفي الفقهاء خير من فقيه الصوفية.

وقد شهد لهذا العلم العلامة ابن خلدون في مقدمته، بانه من العلوم الشرعية الحادثة في الملة الإسلامية، وان طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الامة وكبارها من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم طريقة الحق والهداية... وكان ذلك عاما في السلف.

فهذه مواضع صالحة، أشار إليها حضرة العلامة الجليل، والأستاذ النبيل مؤلف هذا الكتاب، نفع الله به الطالبين، وأقر به عيون المحبين، رأيناها خير شاهد لموضوعه.

ولقد أنصف غاية الإنصاف بقوله في أوائل كتابه حفظه الله، يخاطب خصمه أصلحه الله: ولا تظن أيها الاخ إني أقصد حماية أهل الطريق كيفما كانت نحلتهم، وتطورت صبغتهم، وإن حادوا عن الشرع الشريف، فمعاذ الله أن تجدني للظالمين عضدا. فالشرع حاكم غير محكوم عليه، والمتصوفة كغيرهم من سائر الطبقات، فيهم الغث والسمين.

وبالجملة، فلقد أجاد مولانا المؤلف، وأفاد وأتى بالمطلوب والمراد، وهو أجل من أن ينبه مثلي على فضله، وهيهات أن يأتي الزمان بمثله. والسلام عليه وعلى من أنتمى إليه.

كتبه الفقير محمد جميل الشطي مفتي الحنابلة
بدمشق الشام عفى الله عنه

ومنهم الفقيه العلامة المحقق الدراكة الفهامة المدقق سيدي الشيخ محمود ياسين، قال حفظه الله آمين:

الحمد لله الكريم الحليم، العزيز الحكيم، وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وعترته، وأحبابه ومن أقتفى أثرهم، ونصر خبرهم الى يوم الدين.

وبعد فقد أطلعت على هذه الرسالة الغراء، الجامعة لنصوص كبار العلماء من مشرقيين ومغربيين ومتقدمين ومتأخرين في الذب عن أهل الله والثناء على خطتهم ومدح طريقهم، وبيان أنه الصراط السوي، صراط الذين أنعم الله عليهم بمحبته وتأييد ملته، تأليف الأستاذ المطلع المرشد الشيخ سيدي الحاج أحمد بن مصطفى العلاوي المستغانمي، كتبها ردا على ما نشره بعض الكتاب في العدد [174] من مجلة الشهاب، من الحط من كرامة السادات الصوفية والتنديد برؤسائهم والتصريح بأن الجنيد وعصابته كانوا أحط مرتبة عند بعض الأئمة من مرتبة الخوارج، فضلا عن حمقهم وعن الخلل الموجود في أقوالهم وافعالهم. فقام الأستاذ مؤلف هذه الرسالة، يرد هذه المزاعم بمقالات نشرت في صحيفة البلاغ الجزائري بإمضاء «الناصر معروف» وفي هذه الآونة قام الأستاذ الشيخ محمد بن الهاشمي التلمساني، فطبع هذه المقالات في شكل رسالة لطيفة الحجم، رغبة في تعميم الإنتفاع بها وتأييدا لنصوصها وبراهينها.

ما كنا نظن، أن في الناس من يضعف إدراكه، وتخمد جذوة أفكاره، فيرى الحق باطلا، والنهار ليلا، فيندد بأقوام أطلعهم

الله على أسرار دينه وميزهم على من عداهم بالزهد في الدنيا والبعد عن زخارفها، ومحاربة النفس الأمارة بالسوء ومجاهدتها على ركوب الصراط السوي، وانتهاج النهج الواضح.

إن طريق السادة الصوفية مؤسسة على حب الاتباع وبغض الابتداع، ومن أمهات قواعدها التقيد بالكتاب والسنة، والرد على من يخالفهما مهما علت درجته وعظمت منزلته، قال الجنيد: علمنا هذا مشيد بالكتاب والسنة، فلهذا لو ادعى إنسان طريقتهم وتربع في الهواء دليلا على صحة دعواه الولاية، ثم رد سنة صحيحة واحدة، كان في دعواه هذه لصا محتالا وكاذبا شيطانا.

ان قوما من قواعدهم الثابتة رد دعوى الفناء في الله تعالى حتى يتقدمها أو ينضم إليها الفناء في رسول الله ﷺ فيكون المدعي عندما جاء به ﷺ ظاهرا وباطنا، سرا وجهرا لا يني ولا يقصر، ولا يتقدم ولا يتأخر، [1] إن قوما هذا مبدؤهم، وذلك منهاجهم من الخطل في الرأي والخسف في القول ان نغمطهم حقهم. ونمعن في إيذاء رؤوسهم وكرام قافلتهم على أن سند هذا المجتريء في ذم القوم، ضعيف لا يقوى على الوقوف أمام سند المادحين، ومن أين للباطل أن يثبت أمام الحق وللضلال أن يطمس معالم الهدى إن ما استدل به المجتريء على أهل الله وأهل طريقه، ينحصر في نقول سبعة وما استدل به مؤلف الرسالة على تأييد خطتهم ومدح سبيلهم يزيد على السبعين نقلا. ومتى

1) هذا هو الفناء في رسول الله ﷺ وإليه الإشارة بقوله تعالى: **(قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله)** الآية. وهي صريحة في أن المحب لابد له من الاتباع.

كانت السبعة تطاول السبعين، والفذ الضعيف يقف أمام المئين.
وليكون القاريء على ثقة مما ذكرنا رأينا أن نسرد عليه أسماء المؤيدين لطريقة الصوفية، ممن نقل المصنف في رسالته نصوص عباراتهم. وبذلك يزول ريب المرتاب، في أن منزلة المنقصين لا تجتمع مع منزلة المادحين. هذا إن صح النقل عن المنقص، وهو أمر من الصعوبة بمكان. فمن المؤيدين لطريق الصوفية والمثنين على رجالها : - الحسن البصري، ومالك، وسفيان الثوري، وأبو حنيفة، والشافعي، وأحمد، ويحي بن معين، وأبو منصور الماتريدي، والكندي صاحب التاريخ، وأبو نصر الطوسي، وصاحب الحلية، وابن سريج، والأنصاري، صاحب إرشاد القاصد، والقشيري، وإمام الحرمين، والغزالي، وابن عربي المعافري، وابن النحاس، وابن حمدون، والنووي، والشاطبي، والقاضي ابن رشد، وأبو منصور الشيرازي، والجرجاني، والمقري، وابن الحاج، وابن خلكان، والسنوسي، والفيروزابادي، وابن رضوان، صاحب سعود المطالع ، والشيخ عز الدين، وركن الدين، والشيخ دقيق الدين، والعز بن عبد السلام، وابن تيمية، وابن قيم الجوزية، والسبكي، وشيخ الإسلام، والناصر اللقاني، والفاسي، وابن البنا التجيبي، وابن خلدون، والشيخ زروق من المالكية، وابن حجر، والرملي من الشافعية، والحموي من الحنفية، والهروي، وابن النجار من الحنابلة، والتتائي، والجلال المحلي، والبناني، وابن صدر الدين، واللقاني، والدمنهوري، والصاوي، والشيخ مياره، والشيخ عبد القادر الابيري، والدريدي، والفشاني،

شارح «الزبد»، والعطار، والشعراني، وبيرم الخامس مفتي تونس، والسمهودي، والشبرخيتي، والشيخ محمد عليش، والشرنوبي شارح «تائية السلوك»، وجمال الدين الأفغاني، والشيخ محمد عبده مفتي مصر في رسالة الواردات، وفي شرح «مقامات بديع الزمان»، والسيد محمد رشيد رضا في تاريخ الأستاذ الإمام وفي جزء من «فتاوي المنار»، طبع مستقلا، والشيخ المكي بن عزوز، والسيد محمد الخضر بن الحسين التونسي نزيل مصر، والشيخ محمد الكافي نزيل دمشق، والكاتب الكبير الأمير شكيب أرسلان، والسيد مصطفى الرافعي، والسيد فريد وجدي.

كل هؤلاء الأعلام، نقل مؤلف الرسالة عنهم نصوص الثناء على السادات الصوفية. أما الذامون للصوفية فهم كما أسلفنا سبعة فقط، أعتر المعترض فنقل أقوالهم من كتاب [تلبيس إبليس] وهم: مالك، والشافعي، وأبو سليمان، ويونس ابن عبد الأعلى، وسفيان الثوري، ووكيع، ويحي بن يحي. ونقل القدح عنهم معارض بنقل المدح عنهم أيضا المؤيد بما سبق من ثناء جمهور علماء الأمة عليهم، على أن تعارض النقل عن هؤلاء الأعلام السبعة، يجب أن يدفعنا الى القول، بأن مرادهم بالذم (إن صح نقله عنهم) ذم الدخلاء في طريق القوم، الذين لا يخلو منهم قسم من أقسام البشر، ولا نوع من أنواع رجاله، لا ذم الصادقين منهم، الذين ثبتت عدالتهم، وحسنت سيرتهم، وأجمع الناس على الثناء عليهم.

وكما يجب حمل كلام هذا الفريق من الذامين، لطريق القوم

على الوجه الذي أشرنا إليه، يجب أن يحمل ما يوهم من ألفاظ بعض أهل الطريق، (وهو ما يعبر عنه بالشطحات)، على أن صاحبه، إنما نطق به وهو غائب عن حسه، غير شاعر بما يقوله، لما تملكه من الواردات الآلهية، والاحوال اللَّدُنِيَّة، وذلك للإجماع على عدالتهم، وعلو منزلتهم، وزيادة تقواهم. وقد اتفق الناس على أن المجبر معذور، والمكره غير ملوم. وإذا سقط ما يسمى بالشطح، لم يبق عند الصوفية غير مجاهدة النفس ومحاسبتها، وتعرف دخائلها وخفايا شؤونها، حتى تطهر من أدناسها وتزكو من قبيح صفاتها، وتلتزم العمل بالأحكام الشرعية، وتقف عند حدودها وآدابها وتحتقر هذه الدنيا وزخارفها، وتبتعد عن بدعها ورذائلها، وتزهد فيما سوى الحق تعالى. وليت شعري هل في ذلك أوفى شيء منه ما ينكر أو يزدري، أو يعترض عليه، أو يشتكي منه. سبحانك اللهم ليس في ذلك شيء ينكر ولا أمر يتبرم منه، بل، جميعه مما يجب تحصيله ويفترض العمل للوصول إليه، لموافقته لمنهاج الشريعة، وعدم مباينته، لما جاء به رسول الله ﷺ، مما هو جماع الخير لكل من تمسك به وسار في سبيله. إذا كان جل ما يراد من علم التصوف هو ما ذكرنا، فلا معنى لإنكاره، ولا سبب للتنديد بالداعين إليه، غير الجهل بطريقهم، وسوء الفهم لأحوالهم، أو التعمد الإذاية لهم، بغية الكيد لأحباب الله، والنيل من أوليائه وعامة المنتسبين إليه.

ان الانتقاد سبب عظيم من أسباب النجاح، يحلو إذا كان المراد منه خدمة الحقيقة، ويمر اذا أريد به التشفي، او التغرير،

أو إظهار الحق بصورة الباطل، أو الباطل بصورة الحق، والمعترضون على السادة الصوفية، لو وقفوا في اعتراضهم على الدخلاء في مذهب القوم كما أسلفنا، لأصابوا كبد الحقيقة ولاستحقوا من الناس الحمد، ولكان لهم في الله تعالى جزيل الثواب، ولكنهم تجاوزوا ذلك الى الأخيار الأبرار، فكانوا هم الملومين وجدوا في الحط من مقامهم، فكانوا هم الخاسرين. إن من يحاول الاعتراض على أحباب الله، والحط من رفيع مقامهم، وعظيم منزلتهم، كمن يذم البدر في سنائه، والنجم في علائه، وكمن يريد أن يطفيء نور الله، والله متم نوره. على أنا نعود فنرجح ما كنا ذكرناه من أن مراد المنددين بالصوفية، التنديد بالدخلاء الدجالين، الذين تجرؤوا على الشريعة الطاهرة، وحاولوا الانفلات من ربقة التكليف، وأولوا آيات الكتاب وأطلقوا العنان لأنفسهم وللأميين من أتباعهم في فهم النصوص الدينية، فبعدوا بذلك عن ظاهر الشريعة، وخالفوا جمهرة العلماء وهدّموا بأيديهم أركان الدين وقوضوا بنيانه، فكانوا أداة شر بين السلف والخلف، فثارت لذلك نيران الخلاف، وأندلع لهيب الشقاق، وكان من جزاء ذلك، الوقوع بأولياء الله، والإيذاء لأهل طريقه والداعين إليه، فعسى أن نرى بعد اليوم من كتابنا المجاهدين، وعلمائنا العاملين، من يصوب سهام انتقاداته نحو هذه الفئة الظالمة، وينشر بين الناس أخبار أكاذيبها، وعظيم قبائحها حتى لا يغتر بها مغتر، ولا ينقاد لباطلها جاهل، وحتى تعلوا كلمة الحق، وتخبو كلمة الباطل، ونكون من الناصرين للحقيقة، الناشرين

لوائها بين الخاصة والعامة. وفقنا الله لما يرضاه، وجعلنا ممن اتبع هداه، وحمانا من الوقيعة في أحبابه، ومَنَّ علينا بمحبتهم، وسلوك منهجهم، وحسن الآداب معهم، وجزى الله مؤلف هذه الرسالة وناشرها، خير الجزاء وأعظم لنا ولهما المثوبة يوم الجزاء.

دمشق: محمود ياسين

ومنهم الفقيه المدقق المحدث الصوفي المحقق سيدي الشيخ أحمد بن ابراهيم الجبان قال حفظه الله آمين:

حمدا لمن أنزل على عبده قرآنا عربيا غير ذي عوج، ومحا بنوره ظلم الشرك، وما جعل في الدين من حرج، وأحيا بروح معانيه ميت القلوب، وغذى بروح مبانيه رياض علوم الغيوب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة من أطلق من ربقة قيد التقليد، وشرب أعذب كؤوس التوحيد، وأشهد أن سيدنا محمدا، عبده ورسوله وخليله، الذي أرتفع شأن جبرائيل بالهبوط إلى أعتابه صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه.

أما بعد فقد تصفحت هذا الكتاب المسمى (الناصر معروف في الذب عن مجد التصوف) لمؤلفه العالم الزاهد، الأستاذ المرشد سيدي الحاج أحمد بن عليوة المستغانمي، فوجدته الضالة المنشودة في هذا الباب، جامعا لآداب الدنيا والدين، ببيان شاف في الرد على من أنحرف عن جادة الحق المبين، وسلك طرق الشياطين، وتكلم على السادة الصوفية الذين هم علماء الأمة

وأكابر الأئمة، ولولا الخروج عن الصدد لوفيته الكيل صاعا بصاع، ولكن، ان هو إلا كصرير باب، أو طنين ذباب، على أن العفو أقرب للتقوى، لأن السادة الذين تكلم في شأنهم: (**إذا مروا باللغو مروا كراما. وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما**). قال السري السقطي: رأيت معروفا الكرخي في النوم، كأنه تحت العرش، والباري جلت قدرته يقول للملائكة: مَنْ هذا؟ وهم يقولون: أنت تعلم يا ربنا. فقال: هذا معروف الكرخي سكر من حبي، فلا يفيق إلا بلقائي. وقال معروف: قال لي بعض أصحاب داوود الطائي، إياك أن تترك العمل، فإن ذلك الذي يقربك الى رضا مولاك. فقلت: وما ذاك العمل؟ قال دوام الطاعة لمولاك، وحرمة المسلمين والنصيحة لهم. وقال محمد بن الحسن سمعت أبي يقول: رأيت معروفا الكرخي في النوم بعد وفاته، فقلت له ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي. فقلت بزهدك وورعك؟ فقال: لا، بل بقبول موعظة ابن السماك، ولزومي الفقر، ومحبتي للفقراء، وكانت موعظة ابن السماك ما رواه معروف قال: كنت مارا بالكوفة فوقفت على رجل يقال له ابن السماك وهو يعظ الناس فقال في خلال كلامه: من أعرض عن الله بكليته أعرض الله عنه جملة، ومن أقبل على الله تعالى بقلبه، أقبل الله تعالى برحمته عليه، وأقبل بوجوه الخلق إليه، ومن كان مرة ومرة فالله تعالى يرحمه وقتا ما. فوقع كلامه في قلبي، وأقبلت على الله تعالى، وتركت جميع ما كنت عليه. وقيل لمعروف في مرض موته أوص. فقال: إذا مت فتصدقوا بقميصي فإني أريد أن أخرج من

الدنيا عريانا، كما دخلتها عريانا. ومر معروف بسقاء وهو يقول: رحم الله من يشرب، فتقدم وشرب، وكان صائما. فقيل له ألم تك صائما، فقال: بلى! ولكن رجوت دعاءه. فانظر يا أخي رحمك الله الى مثل هؤلاء، تجد أخلاقا نبوية يهتدى بها الخلق الى الله تعالى. ولله رد من قال:

إن لله عبـــادا فطنـــا * طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
فكروا فيهـا فلمـا علمـوا * أنها ليست لحي وطنـا
جعلوهـا لجـة واتخـذوا * صالح الأعمال فيها سفنـا

فالإنصاف، التسليم لهؤلاء السادة الأبرار، الذين هم مركز للدائرة المحمدية، حتى تنال بركة دعائهم. ذكر عن بشر الحافي أنه جاء إلى أسكاف يطلب منه شسعا لنعله، وكان قد أنقطع. فقال له: الأسكاف ما أكثر كلفتكم على الناس. فألقى النعل وحلف لا يلبس نعلا بعدها. وقيل لبشر، بأي شيء تأكل الخبز فقال: أذكر العفية وأجعلها إداما.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: ذخلت إمرأة على أبي فقالت: يا أبا عبد الله، إني إمراءة أغزل في الليل على ضوء السراج، وربما طفىء السراج فأغزل على ضوء القمر، فهل علي أن أبين غزل السراج من غزل القمر، فقال: إن كان عندكي بينهما فرق فعليك أن تبيني ذلك. فقالت له: يا أبا عبد الله، أنين المريض هل هو شكوى؟ فقال: لها أرجو أن لا يكون شكوى، ولكن هو اشتكاء الى الله تعالى. ثم أنصرفت. قال عبد الله، فقال لي أبي: يابني ما سمعت إنسانا قط يسأل عن مثل هذا.

أتبعها. قال عبد الله فتبعتها الى أن دخلت دار بشر، فأتيت أبي فقلت له: إن المرأة أخت بشر الحافي. فقال أبي، هذا والله هو الصحيح، محال أن تكون هذه المرأة إلا أخت بشر، فهؤلاء الأخيار هم الذين فهموا عن الله تعالى أمره ونهيه.

إن لم تكونوا مثلهم فتشبهوا * إن التشبه بالكرام فلاح

فرحم الله عبدا عرف الحق لأهله فانقاد له وإلا:

على نفسه فليبك من ضاع عمره * وليس له منهم نصيب ولا سهم

والله عز وجل الهادي الى سواء السبيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الكرام وأصحابه العظام، الذين أيدوا هذه الشريعة الغراء، وأسسوا قواعد المحجة البيضاء، وبحثوا عن الحق فأظهروه، ودحضوا الباطل وأنكروه، صلاة وسلاما دائمين بدوام كرمه لائقين بسوابغ نعمــه.

خادم العلم الشريف

أحمد بن إبراهيم الجبّان



فهرست كتاب : رسالة الناصر المعروف

